ضعف ثقافة الحوار مع الآخر

وأثره في نشأة التطرُّف .. وكيفيَّة معالجته

(من منظور قرآني)

بحث يتقدّم به

د. أحمد عبد الكريم شوكه الكبيسي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

المشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة الشارقة

والحاصل على دكتوراه ثانية في القراءات القرآنية

ملخص البحث

إنَّ هذا البحث يُسلِّطُ الضوء على ضعف ثقافة الحوار وأثر ذلك في نشأة التطرُّف، لاسيِّما وأنَّه موضوع يتناول شؤون الحياة دون انعزاليّةٍ أو فصل يقوم منهجه على نظام فريد أساسه القرآن الكريم، قوي في البناء يُقرِّر الصُّور المثلى والمنهج العادل والوسطيَّة تجاه التفاعل الإنساني، والتسامح من أجل التعايش السِّلمي. والقرآن يؤكد على نشر أخلاق الحوار، وحقِّ الاختلاف، وذلك من خلال الممارسة الفعليَّة وليس على مستوى الكلمات أو الشعارات فحسب بدءاً من البيت والمدرسة والجامعة والعمل والمسجد وصولاً إلى المؤسَّسات الرَّسميَّة، وتقبُّل الاختلاف بين الأجيال المتعاقبة، بصفته سُنَّة الحياة، ولن يكون هذا إلا بإشاعة الممارسة الدِّيمقراطيَّة المشروعة في كلِّ مستوياتها ومجالاتها والقضاء على كلِّ أشكال التطرُّف والتعصب، إذ إنَّ المنطقَ يفرضُ علينا أن نتجاوزَ عجزَ الحوار فيما بيننا، ونعمل جاهدينَ من أجل تنمية ونشر ثقافة الاعتراف بالغير، وثقافة الكشف عن مواطن ضعف الحوار ومعالجتها، وثقافة الاستفادة من نقد النَّاقدين الجديِّين، ولو كانوا من معارضينا أو ممَّن نعدُّهم من أعدائنا.

Find highlights the weakness of the culture of dialogue and its impact on the emergence of extremism, especially since it is the subject of dealing with the affairs of life without isolationism or separation of the method on a unique basis of the Koran system, strong in the construction determines the optimal and fair approach images and moderation towards human interaction, and tolerance for peaceful coexistence. The Koran emphasizes the deployment of the ethics of dialogue, and the right to difference, and through actual practice and not on the level of words or slogans only, starting from home, school, university, work and the mosque up to the official institutions, and accept the differences between successive generations, as in life, and this will not be the only purpose of promoting the legitimate democratic practice in all levels and areas and the elimination of all forms of extremism and intolerance

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

مُقدِّمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أمَّا بعد: فإنَّ من بين المشكلات العظيمة والمعضلات الكبيرة التي تواجهنا اليوم، قلة فهم ثقافة الحوار وتجنّب الآخر؛ وذلك خوفاً من مواجهته عقديَّاً أو ثقافيَّاً أو سياسيَّاً؛ حتى حرصَ بعضُهم على استمرار توجيه التهم إليه بالتآمر والابتعاد عنه، من غير حوار أو تقارب وهو مرض فكريٌّ يُؤثر سَلباً على نقاوة هذا الدِّين وانفتاحه، ممَّا يقف حائلاً تجاه بثِّ روح التسامح والتفاعل بين الأجيال؛ حتى أمسى سبباً واضحاً وجليَّاً في نشر ظاهرة الغلوِّ والتطرُّف وإيقاد فتيل العنف. وإذا ما نظرنا إلى منهج الإسلام وجدناه قد تميَّز بالبُعد عن هذا كله ، فلم يكن مقبولاً البتة على مرِّ التاريخ؛ وذلك لأنَّ طبيعة الإسلام أنَّه وسط، معتدل، متزن. يدعو إلى التبادل الفكري والمعرفي والثقافي، وهذا من أهمِّ الأساليب في القضاء على التطرُّف.

لذا فإنَّ دراسة ثقافة الحوار مع الآخر والوقوف عنده من منظور القرآن الكريم، أصبح

من أكثر الأولويَّات إلحاحاً، ومن أكبر القضايا التي تستدعي اهتماماً خاصَّاً ورعاية فائقة؛ لما يحتله من موقع ودور حاسم في رفض التطرُّف بجميع أشكاله ومحاربته، والتطلع إلى حفظ الأمن والاستقرار والتواصل السِّلمي بين الناس، فضلاً عن استنهاض أمَّتنا وتوجيه طاقاتها نحو ميادين الخير والصَّلاح.

أهداف البحث: ومن خلال كتابتي لهذا البحث، توخيتُ تحقيقَ الأمور الآتية:

– إبراز قيم الإسلام وتعاليمه التي تشتمل عليها مصادر الإسلام الأساسيَّة الموثقة، تعريفاً بالإسلام وتعاليمه من ناحية سماحته واعتداله وإعلانه للحوار أيَّاً كان الآخر وفق القرآن الكريم.

– التنبيه على ما يترتب من تفريطٍ في ضعف ثقافة الحوار مع الآخرين وعدم الالتفات إليها، من نتائج عكسيَّةٍ تودي بغير المسلمين إلى التهجم والتنطع على نقاوة الإسلام وصحوته وشموليَّة دعوته.

– التأكيد على أنَّ غاية الحوار مع الآخر، هي ترسيخ قيم التفاهم، ونشر روح التسامح، ونبذ التطرُّف بجميع أشكاله.

– توجيه المسلمين عامَّة، والدُّعاة خاصَّة إلى أهمِّيَّة العناية بثقافة الحوار مع الآخر وتفعيلها؛ لتكون الطريق الأنسب في معالجة ظاهرة التطرُّف والعنف والإرهاب المعاصر.

– بيان أهمِّيَّة معالجة هذا المسلك؛ لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وتعريفهم بسماحة الإسلام وعن مدى احتوائه للإنسانيَّة كافة.

– التأكيد على أنَّ القرآن لا يغمط ثقافة الآخرين ومعارفهم وتجاربهم وخبراتهم، بل يُصحِّح المعوجَّ منها أو الضارَّ، ويوجِّه الناس إلى الخير دون إجبار.

.. وانطلاقاً من هذا الشعور يجئ عنوان هذا البحث: «ضعف ثقافة الحوار مع الآخر .. وأثره في نشأة التطرُّف وكيفيَّة معالجته – من منظور قرآني –» والمتأمِّل في هذا الموضوع يجده في واقع الأمر راجع إلى أسبابٍ كثيرةٍ كلها تزيد في نشأة التطرُّف وأسلوب الفكر الضالِّ وإقصاء الآخر وعدم احتوائه .. ولإطالة هذا الموضوع وتشعبه، فسأكتفي بالمطالب الآتية:

المطلب الأوَّل: رؤية القرآن حول عدم تقبل الآخر ومحاورته، وعَلاقة ذلك بالتطرُّف.

المطلب الثاني: وقد تحدَّثتُ فيه عن أثر ضعف ثقافة الحوار مع الآخر في تكريس ظاهرة التطرُّف.

المطلب الثالث: تطرَّقتُ فيه عن دور القرآن في ترسيخ حريَّة الحوار مع الآخر للقضاء على التطرّف.

وأمَّا المطلب الرَّابع: فقد عقدته للتعرُّف على أسباب ضعف ثقافة الحوار، ومعالجة ذلك في حلِّ أزمة التطرُّف (وفق نظرة قرآنية).

وقد جاء في محورين: **المحور الأوَّل**: حصرتُ فيه أهمَّ الأسباب الدَّاعية لضعف ثقافة الحوار.

والمحور الثاني: فقد خصَّصته لمعالجة تلك الأسباب، وعلى وفق نجاح الحوارات الإيجابيَّة.

..ثمَّ أتبعتُ هذه المطالب بخاتمةٍ ذكرتُ فيها ملخَّصَ ما توصَّلتُ إليه من نتائج أثناء جولتي في دراستي لهذا الموضوع، والذي يُعدُّ المصدر الأساس في نبذ التطرُّف، والدَّاعي إلى التحاور عن يقين.

تمهيد: ويتضمَّن التعريف ببعض مصطلح عنوان البحث ..

إذ جرت المنهجيَّة العلميَّة عند أهل الاختصاص من الباحثين أن يبدءوا بتوضيح مفهوم ما يُريدون البحث فيه، ومعناه من حيث المصطلح للعلم .. ومن هنا وجبَ عليَّ إيضاح مفردتين غالبتين على مصطلح عنوان بحثي هذا، وهما ..

أوّلاً: الحوار لغة: «أصله من الحَوْر، بمعنى الرُّجوع عن الشيء وإلى الشيء، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام. والمُحاوَرة: مُراجعة المنطق والكلام في المخاطبة»[1].

وفي الاصطلاح: «مراجعة للكلام وتداوله بين طرفين أو أكثر، دون وجود خصومةٍ بينهم بالضرورة، ومنه التحاور أي التجاوب».[2] وهي ضرب من الأدب الرّفيع وأسلوب من أساليبه. وبما أنَّ القرآن الكريم قد ذكر نصوصاً حوارية تدلُّ على معنى الجدل، نرى من الضرورة بمكان أن نلقي نظرة على تعريف الجدل ليتبيَّن لنا مدى هي العَلاقة بينهما.

* **فالجدل لغةً:** هو «اللدد في الخصومة والقدرة عليها».[3] أي ما يدلُّ على الشدة والقوَّة.

---

(1) ينظر: جمهرة اللغة: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت321هـ)، تح. رمزي منير بعلبكي، ط1 دار العلم للملايين – بيروت 1987م: مادة: (ح ور): 1/ 525؛ لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت711هـ) ، ط1 دار صادر – بيروت: مادة: (حور): 4/ 217 – 219؛ القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت817)، ط مؤسسة الرسالة – بيروت: مادة: (الحور): ص487 ..

(2) ينظر: التعريفات للجرجاني: علي بن محمد، والمعروف بـ(الشريف الجرجاني ت816هـ)، تح. إبراهيم الأبياري، ط1 دار الكتاب العربي – بيروت 1405هـ: 106، 287؛ التوقيف على مهمَّات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت1390هـ)، تح د. محمد رضوان الداية، ط1 دار الفكر – بيروت، ودمشق1410: 1/ 299؛ آداب البحث والمناظرة: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ط الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: ص3.

(3) ينظر: المغرب في ترتيب المعرب: لأبي الفتح ناصر الخوارزمي المطرزي (ت610هـ)، تح. محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، ط 1 مكتبة أسامة ابن زيد – حلب/ سورية 1979م : مادة: (جدل): 1/ =

وفي الاصطلاح: «دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجةٍ أو شبهةٍ، وهولا يكون إلا بمنازعة غيره».[1]

ويبدو لنا أنَّ الحوار هو تبادل المعلومات والأفكار والآراء سواء أكانت تبادلاً رسميّاً أم غير رسمي مكتوباً أم شفويّاً. وينعقد الحوار بمجرد التعرّف على وجهات نظر الآخرين وتأمّلها وتقويمها والتعليق عليها. ومن هذا المفهوم يمكن أن يطلق الحوار على تلاقح الثقافات بين بعضها الآخر وما يحصل من جراء ذلك من تلاقي المتحاورين وتأثير وتصويب بعضهم لبعض. وقد ورد الحوار في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم فحسب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾[الكهف:34]، وقوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف:37] ، وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[المجادلة:1].

وأمَّا الجدل ففيه لدد في الخصومة، ومنازعة في البيان وشدة في الكلام مع التمسّك بالرّأي والتعصّب له والجدل لم يؤمر به ولم يُمدح في الكتاب أو السنّة على إطلاقه، وإنَّما الممدوح منه ما قيّد بالحسنى أو بالحق».[2]

قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:125]، ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[العنكبوت:46] فهو ليس من باب الدَّعوة، بل مظنَّة التعصُّب والإصرار

=135؛ لسان العرب: مادة: (جدل): 11/ 103؛ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدِّين السِّيوطي (ت911هـ)، تح. فؤاد علي منصور، ط1 دار الكتب العلمية – بيروت 1998م: 1/ 358.

(1) ينظر: تفسير الطبري، والمسمَّى بـ(جامع البيان في تأويل آي القرآن): للإمام ابن جرير الطبري (ت310هـ)، تح. أحمد محمد شاكر، ط1 مؤسسة الرسالة 1420هـ: 8/ 241؛ الكليَّات: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري البغدادي (ت616هـ)، ط بولاق – القاهرة 1281هـ: ص145؛ التعريفات : ص78 ..

(2) ينظر: الحوار (آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسُّنَّة): د. يحيى بن محمد زمزمي، ط 2 دار المعالي– عمَّان 1422هـ – 2002م: ص26.

على نصرة الرَّأي بالحق أو الباطل والتعسّف في إيراد الشبه حول الرّأي الآخر وإن كان على حقٍ.

ويؤكد لنا هذا قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[النحل:125] إذ قصر الدَّعوة على ذكر هذين القسمين؛ لأنَّ الدَّعوة إذا كانت بالدَّلائل القطعيّة فهي الحِكمة، وإن كانت بالدلائل الظنيَّة فهي الموعظة الحسنة، والدَّعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي لا يُعاند الحقَّ ولا يأباه: يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر: يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنَّهي بالترغيب والترهيب[1]

قال علماء التفسير في معنى هذه الآية: «من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب».[2] ومن المناسب أن أذكر أنَّ هذه الآية «نزلت بمكة المكرمة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعوَ إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة».[3]

والنَّبيُّ ﷺ قد تمثل هذه الدعوة القرآنية، فكان نموذجاً للحوار مع الآخر سواء الذين كفروا بدعوته، أو مع أصحابه وأتباعه، وفي هذا دلالة واضحة جلية على أهمية نشر وتعميق ثقافة الحوار بين المسلمين من جهة، وبين المسلمين وغيرهم من جهة أخرى.

أمَّا الجدل فليس من باب الدَّعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدَّعوة وهو الإلزام

---

(1) ينظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): فخر الدِّين الرَّازي (ت604هـ)، ط1 دار الكتب العلميَّة- بيروت 1411هـ- 1990م : 9/ 489؛ التفسير القيّم: محمد بن أبي بكر بن أيوب، والمشهور بـ (ابن قيّم الجوزيّة ت751هـ)، جمع: النَّدوي، تح. محمد الفقي، ط دار الكتب العلميّة - بيروت: ص344.

(2) تفسير القرآن العظيم: لابي الفداء اسماعيل بن عمر (ت774هـ)، تح.سامي محمد سلامة، ط2 دار طيبة 1420هـ- 1999م: 4 / 613.

(3) الجامع لأحكام القرآن: لابي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت 671هـ)، تح. أحمد البردوني وابراهيم اطفيش، ط2 دار الكتب المصرية – القاهرة 1384هـ - 1964م: 10/ 200.

والإفحام، فلهذا السّبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدّعوة تنبيهاً على أنه لا يحصل الدّعوة وإنما الغرض منه شيء آخر.[1]

وفي الحقيقة أنَّ الجدال الحسن يتساوى في الحوار مع الأهداف والآداب ويؤدّي إلى النتائج نفسها؛ لما تقدّم من قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وعلى الرَّغم من الطبيعة المتشعّبة للحوار فإنه ليس دعوة في بعض الأحيان، ولا مناظرة، ولا مجادلة، ولكنّه صيغة جامعة وأسلوب من أساليب التقارب والتجاوب والتفاعل، فهو أعمّ من الجدل .. لذا سيكون منطلق حديثي في هذا البحث – إن شاء الله تعالى– ما يعني المراجعة في الكلام، وأسلوب طرفي هذه المراجعة من وجهة القرآن الكريم ولا يعني حديث الخصومة ولا اللدد فيه أو الخصومة لذاتها، إلا ما جاء مقترناً بالمحاورة.

أهداف الحوار ..

إنّ الوقوف عند أهداف الحوار له أهميّة كبرى في تناول هذا الموضوع؛ ذلك لأنَّ الهدف ثمرة كل شيء والأمور بمقاصدها، فمعرفة الأهداف يعني تحديد مدى نجاح الحوار، فضلاً عن تحديد الهدف والذي يُعدّ الخطوة الأولى في كلّ محاولةٍ يريد أن يقوم بها الإنسان..

1) معرفة أطروحات الطرف الآخر ووجهات نظره وحججه في القضايا التي هي موضوع الحوار.

2) الوصول إلى الحق، وترجيح أحد الآراء المطروحة وتضييق هوّة الخلاف وتقريب وجهات النّظر، وهو من أهمّ الأهداف ولاسيّما في هذا العصر الذي كثرت فيه الخلافات[2]، ويحدّد هذا الغزالي بقوله: «أنْ يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرّق بين أن تظهر الضالة على يده، أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه معينًا لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق».[3] وبهذا يُمكننا تعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من

(1) ينظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): 9/ 489؛ التفسير القيِّم: ص344..

(2) ينظر: الحوار (آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنَّة): ص44.

(3) إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)، دار المعرفة، بيروت: 1/ 44.

المعلومات ووجهات النظر والبراهين في القضايا التي هي موضوع الحوار.

3) بيان الباطل الذي عليه الخصم، والرَّد على الشبهات والطعون الموجهة ضد الحق؛ وذلك لإقامة الحجة على المخالف، ولإظهار الباطل على حقيقته حتى يحذره الآخرون[1] قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:55]. فلا بدَّ من العمل على إقناع الطرف الآخر ليتخلص من وجهات نظره ومواقفه كليّاً أو جزئيّاً في القضايا التي هي موضوع الحوار ليتقبلها ويعمل على تبنيها بعد اقتناعه بها سواء بعد الحوار مباشرة أو تدريجياً.

4) العمل على استكشاف ما لدى الطرف الآخر من حقائق وإيجابيات والاعتراف بها وقبولها والاستفادة منها.

5) العمل على استكشاف ما عند المحاور من معلومات غير صحيحة أو دقيقة وممّا في وجهات نظره أو مواقفه من ثغرات وأخطاء والعمل على تداركها وإصلاحها، قال الإمام ابن تيميّة رحمه الله: «إنّ كثيراً من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون إلى أجوبة عليها».[2]

6) تشييد جسر للتواصل السِّلمي البناء وسدِّ الطريق أمام المُواجهات والمُصادمات ممَّا يبدِّد الجهود.

7) إنَّ الحوار يساعد على التوقد الذهني، وهي صفة ملازمة لأجواء التحدّي الفكري والحوار المتبادل، وهو مفتاح للقلوب وطريق إلى النّفوس.

8) قد يؤدِّي الحوار إلى إيضاح الحقيقة بالإضافة إليها، فيعطي كلّ فرد ما يعرف من أجزاء الحقيقة حتى يمكن تركيبها كاملة وحتى صاحب الحق فإن أجزاء من الحق تبرز له بصورة أوضح أثناء توقده الذهني في لحظات الحوار.

---

(1) ينظر: الحوار (آدابه وضوابطه): ص45.

(2) الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح: أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرَّاني (ت728هـ)، ط المدني – السعودية: 1/ 76.

9) إحباط حجج المُتطرِّفين والمتعدِّين، فكثير من حوارات كبار علماء الإسلام مع الفرق الضالة كشفت زيف أفكارهم، وذلك ما سجّلته أقلامهم رحمهم الله.

10) فهم التطوّرات والمتغيّرات المحيطة بنا ، إذ العالم يعيش بصورة متصاعدة، تغيرات متسارعة في مكوّناته الحضاريَّة والثقافيَّة نتيجة للثورة التقنية والمعلوماتية التي أنتجت نماذج فريدة في تشكيل العالم يصعب اللحاق بها أو فهمها. فمع وجود الشكّ في الآخر وعدم التواصل معه يصبح من العسير التجانس مع التغيرات والتطوّرات، وهذا يقود لوجود تأثيرات سلبيّة متزايدة؛ لأننا سنكون تحت قبضة عالم متنام لا نعرف ماذا يجري حوله فالأمّيّة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة تزداد اتساعاً في مجتمعاتنا عندما نجهل أبسط قواعد الاتصال والحوار ، هذا من جهةٍ. ومن جهةٍ أخرى فانّ التطوّر الحتمي الذي يلحق في البنية التحتيّة لمجتمعاتنا خصوصاً مع بروز الأجيال الحديثة التي نمت في رحم رياح العولمة يجعل الأمر أكثر صعوبةً بفقداننا للتواصل الداخلي وعدم وجود لغة حوار منفتح تقودنا نحو التجانس والتنسيق والعمل المشترك مع أنّ الحقيقة هي سيطرة لغة التصادم والقطيعة والحوار من طرف واحد. ومع عدم القدرة على استيعاب المتغيّرات الحتميّة التي تهبّ علينا نصبح أسرى لمسيرة القدر وقوّة سلطان الآخرين.

وعليه فالحوار الهادئ المراعى فيه هذه الأهداف، يمكن أن يكون مفتاحاً وطريقاً إلى الأفئدة ، محققاً النّتائج الإيجابيّة، والتي قد يخسرها الإنسان إذا لم يسلك سبيل الحوار، أو إذا لم يُراع فيه الضوابط والأهداف.

ثانياً: التعريف بالتطرُّف، وحكمه

ـ التطرُّف لغة: هو تفعَّل – بتشديد العين – من طَرَفَ، بالتحريك: وهي الناحية من النواحي، والطائِفةُ من الشيء.[1] وهذا يعني الابتعاد عن الوسط. ورجل طِرْفٌ ومُتَطَرِّفٌ

(1) ينظر: الصّحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت393هـ)، تح أحمد عبد الغفور عطار، ط4 دار العلم للملايين – بيروت 1990م: مادة: (طرف): 4/ 1393؛ معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس (ت395هـ)، تح. عبد السلام هارون، ط دار الفكر 1399هـ – 1979م: (الطاء والراء والفاء): 3/ 447؛ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (للرافعي): أحمد بن محمد الفيومي=

ومُسْتَطْرِفٌ: لا يثبت على أَمْرٍ.[1] حتى يغلبه التجاوز.

-وفي الاصطلاح: فهي كلمة تُطلَقُ على المُخالِف لقواعد الشرع، وسواء كانت تلك المُخالفة قولاً أم فعلاً . ويكون التطرُّف في الدِّين، كما يكون في الفكر والسِّياسة، والأخلاق والسُّلوك، وهو إتيان غاية الشيء ومنتهاه.[2] وينشأ التطرُّف بسبب التناقض الحاد بين التصورات والمثل الذهني، وبين الواقع الفعلي الذي يستحيل على الفرد، أو الأفراد التوافق معه فيكون تطرّفًا فعنفًا، فردود أفعال.

وأخلصُ إلى أنَّ معنى التطرُّف بجميع أشكاله هو أخذ الأمور بشدَّة من غير لين أو يسر، ممَّا يؤدِّي إلى تجاوز حدّ الاعتدال. ولهذا قد يتحوَّل التطرّف إلى عنف؛ لترابطهما المعنوي من حيث فقدان الوسطيَّة، والاحتقان، وشدّة الانفعال أو ردّ الفعل، وكراهيَّة الآخر المُعارِض، والتخلص من فكرته وإزاحته وأيّاً كانت التحديات: دينيَّة أو اجتماعيَّة أو ثقافيَّة أو اقتصاديَّة أو سياسيَّة وأينما وجدت سواء في أفراد أم جماعات أم أحزاب.

لذ فإنَّ التطرّف عمليَّة تؤشر على وجود خلل ما في النفس الإنسانيَّة أو في الظروف التي تحيط بتلك النفس والإنسان السَّوي بطبيعته يرفض التطرّف ويضيق بالعنف؛ لأنَّ الفطرة السَّليمة تأبى ذلك وتنفر منه. فهي ظاهرة مرفوضة قطعاً؛ لأنها حالة سلبيَّة غير صحيَّة على المجتمعات المعتدلة والآمنة المستقرَّة.

حكم التطرُّف

إنَّ المتتبع للنُّصوص القرآنيَّة يجدها تدعو إلى الاعتدال والوسطيَّة في كلِّ شيء، وكثيراً ما تُحذّر من التطرّف وتعبّر عنه بعدّة ألفاظ منها: الغلو والتنطع والتشدُّد قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء:171]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:77] فمن خلال تلك النُّصوص أصبح من الواضح الجلي أنَّ

=(ت770هـ)، ط المكتبة العلمية - بيروت: 2/ 371.

(1) ينظر: لسان العرب، مادة: (طرف): 9/ 213.

(2) ينظر: حقيقة موقف الإسلام من التطرف والإرهاب: د. سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، ط1 الحميضي، 1422هـ - 2001م: ص9.

الإسلام ينفر أشدَّ النفور من هذا التطرُّف أو الغلوِّ ويحذر منه أشدَّ التحذير.

قال الشيخ ابن تيميَّة ﷺ: «ليُعلم أنَّ المنتسب إلى الإسلام أو السُّنَّة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام والسُّنَّة حتى يدَّعي السُّنَّة من ليس من أهلها، بل قد مرقَ منها وذلك بسبب الغلوّ الذي ذمَّه الله تعالى في كتابه».[1]

وفي الحديث الصَّحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «... **إيَّاكُمْ وَالغلوّ في الدِّين، فإنما أهلكَ مَنْ كانَ قبلكُم الغلوّ في الدِّين**».[2] وعن المتنطعين المجاوزين الحدود، فقد روى عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هلكَ المتنطِّعونَ**»، قالها ثلاثاً.[3]

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيميَّة: جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم النجدي الحنبلي، ط مؤسسة الرسالة –بيروت 1418هـ– 1997م: 3/ 383. (بتصرف يسير).

(2) سنن النسائي (المجتبى من السنن): أحمد بن شعيب النسائي (ت303هـ)، تح. الشيخ عبد الفتاح ابو غدة، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، ط2 مكتب المطبوعات الإسلاميَّة – حلب/ سورية 1406هـ– 1986م: باب: (التقاط الحصى)، برقم: (3057): 5/ 268؛ سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني (ت273هـ) ، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها ، ط دار الفكر –بيروت: باب : (قدر حصى الرمي)، برقم: (3028): 2/ 1008؛ مسند الإمام أحمد: ابن حنبل الشيباني (ت241هـ) تح. شعيب الأرنؤوط وآخرين ط2 مؤسسة الرِّسالة – بيروت 1420هـ– 1999م: برقم: (1851): 3/ 350؛ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت354هـ)، تح. شعيب الأرنؤوط، ط2 مؤسسة الرسالة – بيروت 1414هـ – 1993م: باب: (ذكر وصف الحصى التي ترمي بها الجمار)، برقم: (3871): 9/ 183؛ سنن البيهقي الكبرى: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت458هـ) ، تح. محمد عطا، ط مكتبة دار الباز – مكة المكرمة 1414هـ – 1994م: باب: (أخذ الحصى لرمي جمرة العقبة وكيفية ذلك) برقم: (9317): 5/ 128.

(3) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ)، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي –بيروت : باب: (هلك المتنطعون)، رقم الحديث: (2670): 4/ 2055 سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث (ت275هـ)، تح. محمد محيي الدين، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، ط=

وأوضح هذا الحديث الإمام النووي ﷺ بقوله: «أي المتعمّقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم».[1] وقال الخطابي ﷺ: «المتنطع: المتعمّق في الشيء المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الدَّاخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم».[2]

هذا وقد ذمَّ الله تعالى أيضاً التشدّد المفرط، بقوله: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [الأعراف:31-32]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [المائدة:87]. وذمَّ النبيُّ ﷺ التشدُّدَ ونهى عنه، وقد صرَّح بذلك في حديث - إسناده حسن- يرويه عنه أنس بن مالك ﷺ إذ قال: «لا تشدّدوا على أنفسكم، فيشدّد الله عليكم، فإنّ قوماً شدّدوا على أنفسهم، فشدّدَ عليهم، فتلكَ بقاياهُم في الصَّوامع والدِّيارات: ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الحديد:27]».[3]

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة). وقال: (إنا نقتدي ولا نبتدي ونتبع ولا نبتدع، ولن نضلَّ ما تمسكنا بالأثر). وقال أيضاً: (إيَّاكم والتبدع، وإيَّاكم والتنطع، وإيَّاكم والتعمُّق، وعليكم بالدِّين العتيق).[4]

= دار الفكر –بيروت: باب (في لزوم السنة)، برقم (4608): 2/ 611؛ مسند الإمام أحمد: برقم (3655): 6/ 167.

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج): يحيى بن شرف النووي (ت676هـ)، ط2 دار إحياء التراث العربي - بيروت 1392هـ: 16/ 220.

(2) عون المعبود شرح سنن ابي داود: لأبي الطيِّب محمد شمس الحق العظيم آبادي (ت1329هـ)، ط2 دار الكتب العلمية - بيروت 1415هـ: 12/ 235- 236.

(3) سنن ابي داود: باب: (في الحسد)، رقم الحديث: (4904): 2/ 693؛ مسند ابي يعلى: أحمد بن علي الموصلي(ت307هـ)، تح. حسين سليم أسد، ط1 دار المأمون للتراث - دمشق1404هـ - 1984م: برقم: (3694): 6/ 365.

(4) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: للإمام ابن قيِّم الجوزية (ت751هـ)، تح. طه عبد الرءوف سعد، ط=

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه التحذير من الغلوِّ في الدِّيانة، والتنطع في العبادة بالحمل على النفس فيما لم يأذن فيه الشرع، وقد وصف الشارعُ الشريعةَ بأنها سهلة سمحة، وإنما ندب إلى الشدة على الكفار والى الرَّأفة بالمؤمنين فعكس ذلك الخوارج ... وفيه جواز قتال من خرجَ عن طاعة الإمام العادل، ومن نصب الحرب فقاتل على اعتقاد فاسد، ومن خرجَ يقطع الطرق، ويخيف السَّبيلَ، ويسعى في الأرض بالفساد».[1]

المطلب الأوّل: رؤية القرآن حول عدم تقبل الآخر ومحاورته، وعَلاقة ذلك بالتطرُّف

إنَّ القرآن الكريم بأحكامه المجملة والتفصيليَّة يُؤسِّس لمبدأ الحوار، ويُشجِّع عليه، ولا يُمكن وعي هذا إلا من خلال الوقوف على مبدأ التنوع والتعدد، حتى يُمهِّدَ السُّبلَ للاعتراف بالغير، وهذا ما يلمسه كلُّ دارس لحقيقة لإسلام، ويعلمه كلُّ من يرى الحوار آلة يطرحها القرآن لإثبات العقائد ووسيلة لاستكشاف الرَّأي الآخر وطريقة للتعامل في إطار يُعطي إمكانيَّة قبول النَّتائج وفرضيَّة الوصول إلى قاسم مشترك بين الجميع، سواء كانت النَّتيجة انتزاعاً للحقيقة، أم اعترافاً بها أم إنكاراً لها. والقرآن الكريم قد جعل هذا التعدد الذي نطمح إليه في عالم اليوم آية من آيات الله الدَّالة على خلقه، وسِمة على عظيم صنعه، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم:22].

فالإنسانيَّة التي خلقها الله تعالى من نفسٍ واحدةٍ تتنوَّع ألسنتها وألوانها، بل تتنوَّع إلى شعوبٍ وقبائل وأمم، وإلى شرائع ومناهج في إطار المشترك الإنساني الواحد، ممَّا يجعل المثقف الإسلامي يستحضر وحدة الأصل التي تجعل الناس سواسية وإن اختلفت مُعتقداتهم ، فالعبرة بالجوهر لا بالعرض .. ومن هنا جاء إقرار القرآن للمُساواة المطلقة بين الناس، وتقبل بعضهم لبعضٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

= دار الجيل – بيروت 1973م: 4/ 150.

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ أحمد ابن حجر العسقلاني (ت852هـ)، ط دار المعرفة – بيروت 1379هـ: 12/ 301.

﴿مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:1] ، وإقراره بالاعتراف الصَّريح للآخر بدينه، والاعتراف الصَّريح بالتنوُّع الحضاري المعبر عنه بالاختلاف: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:118-119]. قال الحسن البصري: (وللاختلاف خلقهم).[1] فعلامَ نجعلُ هذا الاختلاف سبباً للتنافر وللخصام!! ونحن نعلم أنَّ عدم تقبل الآخر ورفضه سيؤدي بالمجتمع إلى الإخلال بالأمن والسَّلام وسيلحق ضرراً كبيراً بالإنسانيَّة ، وسينسف جميع جسور التفاهم والتقارب .. علامَ نغض الطرف عن التعدديَّة هذه!! وهي سُنَّة إلهيَّة كونيَّة مطردة في سائر عوالم المخلوقات.

فالتعدديَّة والتنوّع الثقافي حالتان صحيَّتان ينتج منهما التلاقي، وتبادل الأفكار والخبرات التي من شأنها تطوير أنماط الحياة وازدهارها وتلطيف الناس من مشاعرهم السِّلبيَّة تجاه الآخرين، فضلاً عن تخلصهم من كلِّ تحيُّز - غير مشروع- أو حقد، أو عصبيَّة جاهليَّة. وبتواصل الحوار وترسيخ ثقافته على جميع الأصعدة: الدِّينيَّة والتعليميَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة يتعلم أفراد المجتمع احترام الآخر وكسبه بكلِّ مودة ورفق، رافضين أنواع التطرُّف والتشدد والتشرذم؛ حتى تزداد بينهم حالة اللقاء والتعارف الوثيق والتسامح. وهذا ما يدعو الأمم المختلفة أوَّلاً إلى التسابق على طريق الخيرات: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:48]. «الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغيَّر بحسب تغيّر الأزمنة والأحوال وكلّها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها».[2]

ويدعوهم ثانياً إلى فتح مغاليق الفكر وأبواب حُريَّة الاجتهاد والتجديد والإبداع الذي

(1) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره القرآن العظيم: وهو ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت774هـ)، تح. سامي محمد سلامة، ط2 دار طيبة 1420هـ- 1999م: 4/ 362.

(2) تفسير السَّعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان): عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي، تح. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1 مؤسسة الرِّسالة 1420هـ- 2000م: ص234.

يستحيل تحقيقه دون تمايز واختلاف: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة:148]. والأمر هنا بالاستباق إلى الخيرات: «قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإنَّ الاستباق إليها يتضمَّن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها».[1]

ولهذا كانت: «المبادئ السَّامية التي تأسَّست عليها الدَّولة الإسلاميَّة، تهدف إلى حماية جميع رعاياها ولا تقيم وزناً لاختلاف مُعتقداتهم أو أجناسهم أو ألوانهم من منطلق دعوة الدِّين الإسلامي الحنيف إلى التعايش والاحترام المتبادل مع أبناء الأديان الأخرى وشاركَ الجميعُ في صنع الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وكانت الحضارة العالميَّة الأولى في تاريخ البشريَّة، وأيقظت الأمم الأخرى من سُباتها العميق؛ لتخرج إلى عام النُّور ولتستقبل عصر العلم والحضارة».[2] حينئذٍ يجب أن تظلَّ عَلاقة المُختلفين والمُتعدِّدين في إطار الجامعة الواحدة، وعند مستوى العدل والوسطيّة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:143]. والوسط – بنصِّ الحديث الصَّحيح– هو: «العدل».[3] الذي يجب أن يحكمَ عَلاقات الفرقاء المُختلفين؛ ممَّا يؤدِّي إلى نقلهم من مستوى الظلم والعُدوان والتطرّف والانغلاق، إلى مستوى العدل والتسامح والسِّلم والانفتاح، فضلاً عن المحافظة على بقاء التنوُّع والتمايز والتعدد

(1) المصدر نفسه: ص72.

(2) جزء من مقولة الدكتور شعبان محمَّد سلام – المتخصِّص في اللغة العبريَّة من جامعة عين شمس في القاهرة–، إذ ذكرها الأستاذ ناصر العلي، ضمن مقالته: (سماحة الإسلام ودوره في تقدّم الحضارات الإنسانيَّة)، والمنشورة في جريدة الشرق الأوسط – جريدة العرب الدولية–: العدد (8515)، من يوم الجمعة، الموافق: 9/ محرم/ 1422هـ – 22/ مارس/ 2002م.

(3) صحيح البخاري (الجامع الصَّحيح) : للإمام محمَّد بن اسماعيل (ت256هـ): تح. د. مصطفى البغا، ط3 دار ابن كثير – بيروت 1407هـ– 1987م: باب {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً...} رقم الحديث: (4217): 4/ 1632؛ سنن الترمذي (الجامع): محمَّد بن عيسى(ت279هـ)، تح. أحمد محمَّد شاكر، وأحاديثه مذيلة بأحكام الألباني عليها، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت: باب: (ومن سورة البقرة)، برقم: (2961): 5/ 207، وقال عنه: (حديث حسن صحيح)؛ مسند أحمد: برقمي: (11068، 11283): 17/ 122 – 383 .. وكله من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

والاختلاف: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت:34].

قال ابن عباس: «﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: الصَّبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوه عصمهم الله وخضع لهم عدوهم».[1]

فالله تعالى يأمر بمصانعة العدوِّ والإحسان إليه؛ ليردّه عنه طبعُهُ الطِّيب الأصل إلى الموادّة، والمصاف.[2] وهو ما يدلُّ على: «أنَّ مُقابلة إساءة العدوِّ بالإحسان إليه تذهب عداوته، وتكسب صداقته».[3] وهذا هو خُلقُ المسلم الحقّ، بل إعلان الحوار والتفاهم، ورفع شعار المودَّة الإنسانيَّة؛ غاية عُليا في حفظ الأمن والسَّلام؛ ونتيجة فضلى في تحقيق العدل على مستوى الوسطيَّة الجامعة عن غيرها من نزعاتِ الكراهيَّة والتطرُّف التي تفضي إلى الانفراد بالسَّاحة، مع نشر الأنانيَّة والغلوِّ فضلاً عن نقض التعدديَّة والاختلاف في النِّهاية.

إذن الاختلاف بين البشر في أفكارهم وآرائهم ومواقفهم وعاداتهم أمرٌ لا بُدَّ منه تقتضيه ظروف نشأة البشر، وأنّ تعدد الثقافات والحضارات الإنسانيَّة واختلاف الناس في الدِّين أمرٌ من مقاصد الخلق، حتى إنّ القرآن الكريم يؤكِّد على حتميَّة وجود ذلك الاختلاف والتفاوت بين بني آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس:19]. فالاختلاف أمرٌ قدري مثلما هو أمرٌ مقصود؛ لتقوم الحُجَّة على المُخالف، لكن ليس للاقتتال أو النزاع، إذ ليس الكفر في ذاته مبيحاً لقتل الكافر ولإزهاق روحه.

أمَّا التنوُّع في الأعراق والأجناس والألوان واللغات فإنما يقصد به التعارف والتقارب، لا التنافر والتفرّق بل إنَّ الاختلاف سببٌ مهمٌّ من أسباب اجتماع البشريَّة وتعارفهم وتبادلهم للمعارف وقد حثَّ القرآنُ على الانفتاح والتعارف والإخاء الإنساني وعدَّه -كما

(1) صحيح البخاري: باب (تفسير حم السجدة)، رقم الحديث (4537): 4/ 1814.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 1/ 110.

(3) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: محمَّد الأمين الجكني الشنقيطي (ت1393هـ)، تح. مكتب البحوث والدِّراسات، ط دار الفكر – بيروت 1415هـ – 1995م: 9/ 190.

تقدَّم- طريقاً للتكامل، ودعا إلى الاستفادة من علوم الآخرين في مضمار الرُّقيِّ الماديِّ والعلوم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات:13] سُنَّة لا سبيل إلى إلغائها وتجاوزها بل ينبغي فهمها واستيعابها، وهذا دليلٌ على أنَّ التعارف والحوار والتعاون بين الشعوب سِمة أساسيَّة من سِمات الإسلام الحنيف، وأنَّ أصلَ دعوة الإسلام هو الالتقاء بين الأمم والشعوب للاعتراف بالغير.

فلا يمُكن لأيِّ مجتمع من المجتمعات، أن يتقدمَ إلى الأمام إلا من خلال إيجاد أرضيَّة للتعدديَّة والتعايش، والتفاعل الحرِّ بكلِّ مكوِّناته، ولا يُمكن له أن ينهضَ من دون أن تتوفر فيه ثقافة الحوار، وحُريَّة الفكر والتفكير وحق الاختلاف في الرَّأي، فضلاً عن نبذ أشكال التطرّف والتخلي عن ثقافة التهميش والتغييب والإقصاء والاستئصال باعتبار أنَّ ذلك يُشكِّل الأساس الأوَّل لتقدُّم المجتمعات وتطوِّرها. وبهذا يكون المسلمون قد تجاوزوا عوامل الصِّراع ودعوات النِّزاع تجاه بعضهم أو غيرهم وذلك بتقبلهم وسعة آفاقهم ونظرتهم إلى المخالف برؤيةٍ شموليَّةٍ واضحةٍ تتيح تقارب وجهات النَّظر وهذا الأمر كفيل بنزع فتيل العنف والغلوِّ والتشدد والحقد الذي طالما أنهكَ الإنسانيَّة برمَّتها، والذي أثر على مستوى التفاعل والتقارب بين الشعوب والأمم حتى أمست متنافرة متباعدة.

لذا فإنَّ ظاهرة إحياء ثقافة الحوار وترسيخها بين الشعوب والأديان والثقافات ظاهرة صحيَّة نافعة، بل هي الوسطى العادلة والمتوازنة بين غلوِّ الإفراط والتفريط في الانغلاق والعُزلة، وهي الظاهرة التي تدفع حالة التطرّف، وتُبعدُ شبحَ الإرهاب العالمي والمحلي على حدٍّ سواء، وهي ظاهرة إصلاحيَّة ثوريِّة تتجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث إنّه جزءٌ من الذات الدِّينيَّة الواحدة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:64] .. وانطلاقاً من هذه الآية فقد أوضح الأستاذ حسان حتحوت طبيعة الإسلام ورؤيته إلى الآخر قائلاً: «ليس ثمَّة أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة في الدَّلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام ، ذلك أنَّ المسافة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة، وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعاً للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من بابٍ أوْلى متسع للتعايش بين

المؤمنين وإن كان هذا التعايش لا يعني أنّنا متفقون في كلِّ شيءٍ».[1]

فأهل الكتاب: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران:113-114].

وفي الحديث الصَّحيح عن ابي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «... **الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**».[2]

فليس من العدل أبداً التسوية بين هؤلاء، ومع هذا كله فإنَّ الإسلام قد قرَّرَ لكلِّ هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قرَّرها للمسلمين المؤمنين بالكتب والنبوَّات والرِّسالات كلِّها.

وفي ضوء هذه المبادئ السَّامية التي سنَّها القرآنُ الكريمُ والنبيُّ ﷺ للتعامل مع غير المسلمين انتشرت رسالة الإسلام في جميع أنحاء الأرض وازدهرت الحضارة الإسلاميَّة في جوانبها الماديَّة؛ نتيجة التقائها بثقافات الآخرين. إذ تعرّف المسلمون على علوم كثيرة من الشعوب من غير ملتهم، وتكوَّنت لديهم خبرات واسعة في شتى المجالات الصِّناعيَّة والتجاريَّة والزراعيَّة والعمرانيَّة والعلميَّة والفنيَّة، وترجموا إلى اللغة العربيَّة كلّ ما عرفوه من

(1) رسالة إلى العقل العربي المسلم: حسان حتحوت، ط1 دار الحياة – القاهرة 1998م: ص153.

(2) صحيح البخاري: باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، رقم الحديث (3259): 3/ 1270؛ صحيح مسلم: باب: (فضائل عيسى عليه السلام)، برقم (2365): 4/ 1837؛ مسند أحمد: برقم (9270): 15/ 153.

ومعنى الحديث، قال العلماء: «أولاد العَلَّات - بفتح العين المهملة وتشديد اللام- هم الأخوة لأب من أمّهاتٍ شتى وأمَّا الأخوة من الأبوين، فيُقال لهم: أولاد الأعيان. قال جمهور العلماء: معنى الحديث أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأمّا فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف. وأمَّا قوله ﷺ: «ودينهم واحد»، فالمراد به أصول التوحيد، وأصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعاً». شرح النووي على صحيح مسلم: 15/ 119- 120.

تراث الأقدمين وصهروا هذه الخبرات والمعارف التي أخذوها واستفادوا منها في بوتقة الإسلام. وإذا كان الإسلام قد أكد على القيم الإنسانيَّة التي من شأنها أن تجمع ولا تفرِّق، وتبني ولا تهدم، وتحض على التعاون لتحقيق الخير للبشر كافة فإنَّ من أولويَّات تلك القيم وأساسها ترسيخ الحوار والفهم المشترك بين الحضارات والأديان وعالمنا اليوم بأمسِّ الحاجة إلى التقارب والتعاون من أجل مواجهة تحديات العصر وفي مقدِّمتها التطرُّف والعنف وقضايا الإرهاب العالمي. وإذا لم تترسخ ثقافة الحوار ولم يعترف بعضنا بالآخر، فإنَّه ستتغلب المصالح الذاتيَّة على المصلحة الإنسانيَّة، ممَّا يزيد الأمور تعقيداً وتتفاقم المشكلات، الأمر الذي يُنذرُ بانتشار التطرّف والفوضى والعنف، وعدم الاستقرار في مناطق كثيرة في العالم.

ومن هنا يبدو لنا ضرورة التفكير الجدي في قضيَّة دفع الحوار إلى الأمام، وإذكاء روح التسامح، لاسيَّما وأنَّ الأمَّة الإسلاميَّة التي تُنعت اليوم بالتأزم والتخلف، بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الدُّخول في مشروع تجديديٍّ حضاريٍّ شامل يُعيد لها حيويتَّها، وفاعليَّتها التاريخيَّة والاجتماعيَّة وأصالتها الثقافيَّة والنفسيَّة .. ومن هنا ينبغي لعلماء الأمَّة ورجالها المخلصين أن يُفكروا مليَّاً في موضوع تقوية الحوار بوصفه عملاً علميَّاً حضاريَّاً ومنهجيَّاً شاملاً في تحقيق الوسطيَّة، وفعلاً اجتماعيَّاً يتطلب أعلى مستويات الذكاء والوعي والفاعليَّة والأصالة والإتقان، ويخضع لمنهج حضاريٍّ واضحٍ ومتناسبٍ مع حجم الواقع المطلوب تغييره.[1] نحو القضاء على الإرهاب والأفكار المتطرِّفة والمنحرفة عن حقيقة كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ.

ولا يُمكن للأمَّة الإسلاميَّة اليوم أن تزدهرَ ما لم تفهم كيفيَّة التطبيق العلمي لحقوق الإنسان، وتحرص على القاعدة الأساسيَّة للتعامل بين المسلمين وغيرهم، لاسيَّما وأنَّ الأعاصير الاستبداديَّة المعادية للحُريَّة تتربص بهم الدَّوائر، وتريد منهم الانقضاض على عناصر هذه الحُريَّة، وفي مقدِّمتها حق الاختلاف واحترام ممارسته في الحياة اليوميَّة للناس،

(1) ينظر: الشاكلة الثقافيّة – مساهمة في إعادة البناء-: عمر عبيد حسنة، ط1 المكتب الإسلامي – بيروت: 98- 99، نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي: د. عبد الكريم بكار، ط1 دار البشرى – جده: ص13- 14.

حتى تأخذ ثقافة الحوار والاختلاف بالانحسار، وتحلّ محلها ثقافة الصَّوت الواحد واللون الواحد والفكر الضالّ ، التي لا تقبل الاختلاف، بل تُلقي بالمختلف الآخر في حظيرة التآمر أو الخيانة. ولا يمكن لهذا أن يحدث إلا إذا ضعفت ثقافة الحوار والمواطنة في المجتمع، وحينئذٍ تتغلب لغة العنف والنزاع، وتمتد بين الناس العاديِّين أنفسهم حتى يتحوَّلوا إلى وقودٍ للصِّراعات، بعد أن أصبحوا مجرد صدى ومتلقٍ للتوجهات الفكريَّة المنحرفة.

لذا فالمسلمون اليوم في حاجةٍ بها ماسَّة إلى تنشيط ذاكرتهم والالتفات إلى القيم التي تزخر بها حضارتهم، والعودة إلى تطبيقها في دنيا الواقع من أجل تطوير حياتهم، وإصلاح مجتمعاتهم وتغيير الأوضاع التي لم تعد تتلاءم مع ظروف العصر ومستجدات الحياة والإسلام إذ يُشجِّعُ على ذلك كله فإنَّه يُبيِّن في الوقت نفسه أنَّ قانون التغيير يقضي بأنَّ أيَّ تغيير أو تطوير لابُدَّ أن ينبعَ من الدَّاخل لا من الخارج، كما يُشيرُ إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾[الرعد:11] .. لا يُغيِّر ما بقومٍ من عافيةٍ ونعمةٍ، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يُغيِّروا من ذلك بظلم بعضهم بعضاً، واعتداء بعضهم على بعض.[1]

إنَّ عملية التأثير والتأثر بين الحضارات والمجتمعات عمليَّة واقعيَّة لا مجال لإنكارها، وهذا لن يستقرَّ ما لم نعلن الحوار ونحيي ثقافته والسِّلم معاً؛ كي نستجيبَ لفهم ذاتنا وفهم الآخرين ونبتعدَ عن الانعزاليَّة الممقوتة التي تفقدنا خصوصيَّتنا الحضاريَّة وتحوّلنا إلى مجرد هامش يكاد أن يضيع. فالدَّعوة اليوم إلى الحوار هو التعبير الأسمى في كبح التطرُّف وعشاقه، والذي يُحقّق الذات ويكفل الانفتاح على الآخرين، ويُثمر مستوىً لائقاً من التعايش الثقافي والحضاري المنشود.

إنَّ التقاء الأمم والشعوب مَعْلمٌ من معالم التاريخ الحضاري للإنسانيَّة، وهو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه، وقد تمَّ دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم التمييز بين ما هو

(1) ينظر: تفسير الطبري: 16/ 382.

مشترك إنسانيّ عام، وبين ما هو خصوصيَّة حضاريَّة.[1]

ولا شكَّ أنَّ الخيار البديل للتطرف والإرهاب ولصدام الحضارات وصراع الدُّول، هو ترسيخ ثقافة الحوار وبثّ روح التصالح بين الشعوب والأمم بما يكفل للإنسان والبشريَّة جمعاء الخير والفائدة، ويُحقق العيش المشترك في عالم يسع الجميع مهما كانوا متباينين على المستوى العقدي والثقافي والحضاري، بَيْدَ أنَّ هذه الرُّوح الحضاريَّة لا يُمكن أن تتمَّ أو تتحقق إلا عن طريق حوار بنَّاءٍ وفعَّالٍ بين الأديان مع إعلان حسن النَّوايا، علماً أنَّ الحوار لا يُمكن فرضه بالقوّة، إذ هو كالحبِّ والصَّداقة لا يولد بالضغط ولا بالترغيب. إنما يولد بالتسامح والانفتاح على الآخرين المختلفين واحترام وجهة نظرهم، وتفهمهم وعدم رفضهم وقبولهم كما هم وكما يرغبوا أن يكونوا. والإسلام كدين عندما يدعو إلى التحاور والتفاهم يُنكر الأنانيَّة والمركزيَّة الحضاريَّة التي تريد للعالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الأنماط والتكتلات الحضاريَّة الأخرى. والإسلام يسعى إلى أن يكون العالم منتدى حضارات متعدد الأطراف، ومع ذلك فإنَّه لا يُريدُ للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزيَّة القسريَّة، إنما يُريد لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعلَ وتتساندَ في كلِّ ما هو مشترك إنسانيّ عام.[2]

إنَّ الدِّين الإسلامي يقوم على أساس التسامح والألفة، ولهذه الخاصيَّة تقدَّمت ثقافة الحوار في المقام الأوَّل، فكان الإسلام ولا يزال مثالاً نادراً لقبول الآخر. وقد كان لحيويَّة الحوار والاعتراف بالمخالف دافع قويٌّ نحو التطوُّر والتقدم والإبداع، ممَّا نقل روح المدنيَّة إلى العالم الغربيِّ، وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرِّخين والمفكِّرين الغربيِّين الذين برئوا من الهوى والغرض، وكتبوا بـإنصاف عن حيويَّة الإسلام وانفتاحه. ولعلنا لا نُغالي إذا أكدنا هنا على أنَّ الإسلام إذا ما نظرنا إليه من حيث مبادؤهُ وتعاليمُهُ الأصيلة وجدناه أرقى الأديان في تحقيق مبدأ الحوار والتواصل، ويشهد التاريخ لهذا، وذلك من خلال مُعاملة المسلمين لغيرهم في البلاد المفتوحة، والتي كانت مثالاً رائعاً من التسامح

(1) الغزو الفكري وهم أم حقيقة: محمد عمارة، ط الأزهر – مصر 1988م: ص205.

(2) ينظر: العطاء الحضاري للإسلام: للمؤلف نفسه، ط دار المعارف – مصر 1997م: ص121.

يُحتذى به، ممَّا يرمي إلى القضاء على أسباب التطرّف والعنف والإرهاب والصِّدام بين الدُّول، وزعزعة الأمن والسَّلام.

والمتأمِّل في دعوة الإسلام إلى التسامح يجدها قائمة على الحوار الفعَّال والجدي الذي يهدف إلى التفاهم والإقناع والالتقاء على قواسم مشتركة وليس إلى التقابل الجدلي العنيف أو الصِّدام كما يُتوهم أن يكون، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:125]، وقوله ﷻ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:46].

فليس بدعاً أن يكون الإسلام بهذا التفرّد دين الوسطيَّة، دين (الحوار والتسامح) وليس دين التطرُّف أو العنف والصِّدام كما يُتـَّهم بذلك، وقد استطاع أن يُقيمَ أمّة عاش في كنفها المسلمون وغيرهم وعاشت هي في عَلاقات مع غيرها أساسها التعارف بعيدة عن الإقصاء والانعزاليَّة، ممَّا جعل للإسلام رسالة تبدأ من التوحيد وتنتهي بالدَّعوة إلى الوحدة التي يتعايش داخلها البشر كله تحقيقاً للوسطيَّة والمُساواة والكرامة الإنسانيَّة، بعيداً عن أيِّ لون من ألوان الصِّراع، وفي منأى عن أيِّ مظهر من مظاهر الغلوِّ الذي يستحيل أن يكون الإسلام يحمل شيئاً من بذوره.

ولهذا كفلت شريعة الإسلام حُريّة الاعتقاد لغير المسلمين، وكفلت حقوقهم ورعايتهم؛ استجابة لهدف الإسلام وأمله في تحقيق العدالة والإنصاف وهما سِمتا الحياة فيه؛ وذلك لتستقرَّ الأمم والشعوب، وتعيش في أمن وأمان. وتحقيقاً لمفهوم الأمن الشامل كفل الإسلام المُعاملة الحسنة والرِّعاية الكريمة لغير المسلمين بأن يكونَ لهم ما للمُسلمين من حقوق ورعايةٍ واهتمام وحمايةٍ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، حتى صار الأجنبيُّ يتمتع بجميع الحقوق والأمان الذي يتمتع به المواطن المُسلم، وأصبح الجميع متساويين، وحقوقهم مُصانة وفي مُقدّمة ذلك أنفسهم ومُمتلكاتهم وأعراضهم ودينهم.[1] فالإسلام

(1) ينظر: نظام الأمان في الشريعة الإسلاميَّة وأوضاع المستأمنين: سامي الصقار، ط جامعة محمد الخامس –

يُطالبنا وفق أخلاقيَّاته وسموٍّ نظريَّاته إلى نشر لغة التفاهم والتسامح مع الأديان ومهما اختلفت.

فمن هذا المناخ الدِّيني المتسامح انطلقت الحضارة الإسلاميَّة، وأعلنتْ رايتها المعترفة بالتعدديَّة الدِّينيَّة والتنوّع الثقافي، ولم تسعَ أبداً إلى ابتلاع الآخرين أو فرض هيمنتها عليهم وعلى ثقافاتهم، بالعكس لو نظرنا إلى هذه الحضارة لوجدنا أنَّ أهمَّ سِماتها هو التواصل والمشاركة وتجاوب الآخرين لذا فإنَّ محاولة اقتلاع مبدأ الحوار ونفي ثقافته من واقع الإنسان العالمي، لم يعد اليوم ممكناً إطلاقاً، ولاسيِّما أنَّ الوعي البشري قد وصل مرحلة من مراحل مستوى الذكاء الحضاري العالمي، بمعنى أنَّ من يحارب الحوار أو يريد إضعاف ثقافته، لا بد وأن يعيشَ منعزلاً عن الوجود، مبتعداً عن تطوّر المجتمعات، مخالفاً للوسطيَّة المعتدلة؛ وذاك لأنَّه قد امتلأ كراهيَّة يخشى من مشاركة أيِّ إنسان، ممَّا يجعله يُضيِّق على نفسه بأمر غير مشروع البتة. ولاسيِّما أنَّ الحوار ركن أساسيٌّ من أركان الوجود البشري في تواصله واستعداداته ومواكبته للأحداث المتطوِّرة. ولهذا على المجتمعات كافَّة أن تعملَ جاهدةً على عدم ضعف ثقافة الحوار مع أيِّ طرف، وعدم نشر نزعات الكراهيَّة والأنانيَّة والحقد.

.. كلُّ هذا يوضح لنا عامَّة وللمتطرِّفين من بعض المسلمين وغيرهم خاصَّة، أنَّ الدِّين الإسلامي قد أقرَّ مبدأ أصول العَلاقات الإنسانيَّة من تبادل للأفكار، واحترام للحُريَّات مع المسلمين وغيرهم وسبقت بذلك قواعد القانون الدُّولي كله وذلك منذ أربعة عشر قرناً[1] ولم يُضيِّق الإسلامُ على المُخالفين أو يُرهبهم أو يُروِّعهم البتة، وبذلك تندحر المقولة المزعومة والتي يتشدَّقُ بها الأعداء الحاقدون على نظام الإسلام مردِّدين مقولة: إنّ الإسلام انتشر بالسِّيف، وأنه دين العنف والإرهاب، بل الإسلام انتشرَ عن طريق الدَّعوة بالتي هي أحسن والمُجادلة المُقنعة، والحِوَار الهادف البنَّاء والتسامح في المُعاملة، ولم يعرف السِّيف إلا دفاعاً

= الرباط / المغرب 1977م: 69، مفهوم العدل في الإسلام: مجيد خدوري، دراسات في الفكر الدِّيني – دمشق / سورية: ص131.

(1) ينظر: قواعد العَلاقات الدوليَّة في القانون الدُّولي وفي الشريعة الإسلاميَّة: جعفر عبد السَّلام، ط مكتبة السَّلام العالميَّة – القاهرة 1401هـ: ص315.

عن حُرُماته ومُقدَّساته من أن تُنتهكَ أو تُمْتهن من قبل الأعداء والدَّليل على ذلك تمتع الأجنبيِّ بالأمان، إذ جاء الإسلامُ بشريعةٍ عادلةٍ ونظم إنسانيَّةٍ تحترم الإنسان وتكرمه وتمنحه الرِّعاية والحماية والأمان. وقد أبان الفقهاء أنَّ الأمان للأجنبيِّ يتمثل في تحقيق الدَّولة الإسلاميَّة الأمن والحماية لمن لجأ إليها.(1)

وقد أدركت الدّولة الإسلاميَّة في سياساتها الخارجيَّة منذ نشأتها الأولى هذا الأمر وأعطته جُلَّ الاهتمام فزوَّدت سفراءها بالتعليمات والسُّلوكيَّات والآداب التي ينبغي أن يتجمَّلوا بها أمام الدُّول والهيئات والمؤسَّسات والمنظمات العالميَّة، فمَّما أوصتهم به الدّيبلوماسيَّة الإسلاميَّة عدم التدخل في شؤون المُرسل إليه وأمور مملكته والتحريض على الرَّاعي والرَّعيَّة، أو أن يتصلوا بشخصيَّات مشتبه في أمرها لدى سلطات الدَّولة المُرسل إليها؛ لأنَّ الدّبلوماسي أو الوافد إلى دولةٍ أخرى ينبغي أن يكون كما قال الملك الظاهر برقوق: «أعمى أخرس، غزير العقل ثقيل الرّأس».(2)

والإسلام لا يمنع من إقامة العَلاقات بين الحِضارات عامّة، وكذلك الدّوليَّة خاصَّة حتى مع غير المسلمين على أسس من العدل والمعاملة بالمثل. والتوازن هو السُّنَّة التي دونها يستحيل أن يكونَ هنالك وجود حقيقي على مستوى الفرد، فالإنسان إذا اختلت التوازنات في ذاته وفي جسمه يشعر بمرض، كذلك الطبيعة والطقس والجو إذا اختلت فيها التوازنات يحدث الخلل، وإذا اختلَّ التوازن في العَلاقة بين الطبقات في المُجتمع، يحدث الصِّراع والدَّمار، وإذا اختلَّ التوازن بين العَلاقات الدّوليَّة تحدث الحروب والصِّراعات والفتن.

فهذه هي تعاليم الإسلام تجاه كلِّ إنسان والتي سبقت جميع المذاهب التي تحدَّثت عن حقوق الإنسان، وأنَّ الإسلام جعل هذه التعاليم ديناً يُتقرَّبُ به إلى الله، كما يُتقرَّب بالصَّلاة وغيرها من العبادات. فالإسلام يُقرِّرُ أنَّ جميع بني البشر من أصل واحد وإن تفرَّقوا شعوباً وأجناساً وألواناً، فهم جميعاً أبناء أب واحد وأمٍّ واحدة اشتركوا جميعاً في عمليَّة واحدة

(1) ينظر: الإسلام والعَلاقات الدُّوليَّة: محمد عفيفي، ط دار الرائد العربي – بيروت 1406هـ: ص317.

(2) النظم الدّيبلوماسيَّة في الإسلام: صلاح الدِّين المنجد، ط دار الكتاب الجديد – بيروت 1403ه: ص66.

للخلق حين يمرُّون في أطوار واحدة لا فرق بين إنسان وآخر. وإنّ من أبرز معالم التعايش السِّلمي الذي يُقرِّه الإسلام للآخر هو توفيره للغير بوجود اندماجي يُحافظ فيه على جميع مكوِّنات شخصيَّته، وفي طليعتها المكوّن الدِّيني وما يرتبط به من ممارسات وعادات بها يؤكد ذاته عَقَديَّاً وثقافيَّاً ونفسيَّاً، ومعها يُثبت خصوصيَّات هويَّته ممَّا يتحقق به الانتماء إلى ذلك المجتمع. ويذكر رسول الإنسانيَّة مُحمّد ﷺ بطريقةٍ واضحةٍ هذه القيمة فيقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ؟ ...**».[1] ساوى بينهم في كلِّ حق دينيٍّ ودنيويٍّ، ولم يجعل لأحد منهم ميزة في نسب أو حسب أو مال أو حسن صورة، إنما الميزة والتفضيل بالمعاني العالية في التقوى وتوابعها.[2]

فهنا تأكيد لوحدة الأصل التي تؤكد بوحدة التكوين والخلق ، ثمَّ يكون التفاضل بين الأفراد مرتبطاً بالعمل والتقوى ، والتقوى تعني العمل بما أمر الله والابتعاد عمَّا نهى عنه، فلا مجال هنا كي يتمايز الناس بأصولهم وأجسامهم وأموالهم وقوَّتهم، ولكن التمايز يكون على أساس أكثرهم طاعة لربه وأكثرهم بذلاً للعمل الصَّالح واحتراماً للآخرين. وقد طبقت المُساواة بين الناس على عهد رسول الله وعهد خلفائه من بعده في كافة ألوان النشاط الإنساني والاجتماعي وفي نطاق الأسرة والمجتمع.[3]

---

(1) مسند أحمد: (من حديث أبي نضرة عن رجل من الصَّحابة): رقم الحديث: (23489): 38/ 474.. قال عنه الألباني (إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، غير من سمع خطبته ﷺ فإنه لم يسمّ، وذلك ممَّا لا يضرّ؛ لأنه صحابي، والصَّحابة كلهم عدول). السِّلسلة الصَّحيحة: محمَّد ناصر الدِّين الألباني، ط مكتبة المعارف – الرياض: برقم: (2700): 6/ 203.

(2) كمال الدِّين الإسلامي وحقيقته ومزاياه: عبد الله بن جار الله ابراهيم آل جار الله، ط1وزارة الشؤون الإسلاميَّة والأوقاف والدَّعوة والإرشاد – السّعوديَّة 1418هـ: ص91.

(3) ينظر: السِّياسة الشرعيَّة في إصلاح الرَّاعي والرَّعيَّة: للإمام أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة (ت728هـ)، ط دار المعرفة – بيروت: 10، مآثر الإنافة في معالم الخلافة: أحمد بن عبد الله القلقشندي، تح. عبد السَّتار أحمد فراج، ط2 حكومة الكويت / الكويت 1985م: 1/ 40.

وهذا لا يعني أنَّ المسلمين اتجهوا إلى مُعاملة العبيد والطبقات الدُّنيا من المجتمع مُعاملة تتسم بالعطف والرِّعاية بل استقرَّت المُساواة الحقيقيَّة وأصبحت قيمة ثابتة من قيم الحياة أهلت الكفء مهما كان جنسه أو لونه أو نسبه ليتولى أرقى مناصب الدُّولة. جاء الإسلامُ بالمُساواة الصَّحيحة المستقيمة التي روحها العدل والرَّحمة والتكامل في الحقوق، ساوى بين طبقات الخلق في العدل في كلِّ شيء.[1]

ولا شكَّ أنَّ الصِّلة الوطيدة بين العدل والمُساواة واضحة وضوح الشمس، فلا عدل بلا مُساواة ولا مساواة بلا عدل، بل إنَّ بعضهم يُقرِّرُ أنَّ المساواة أساس الحكم. وقد ساوى الإسلام بين الناس أمام القضاء، فلم يُعرف في عهد الرَّسول ﷺ ولا في عهد الخلفاء الرَّاشدين ﷺ فكرة المُحاكمة الاستثنائيَّة، ولا فكرة المُحاكمة الخاصَّة، التي تختصُّ بمحاكمة بعض الناس دون بعض.[2]

ولهذا جعل الإسلام المساواة ومبدأ الحوار أصلاً من أصول التعامل والتعايش بين الناس، ويؤكد على ذلك؛ لأنه دين عام شامل لشئون الحياة كلها، فهو بحق دين الإنسانيَّة قاطبة حتى قيام السَّاعة.[3]

فمن هنا صار الانفتاح ضرورة حتميَّة علينا؛ كي نتعرَّف على جميع العوالم والثقافات التي يمكن لها أن تؤدي إلى ازدهار المعرفة والتفاعل معها، بما يؤدي إلى الإفادة منها، والإضافة إليها مع ترسيخ ثقافة تقبُّل الآخر المختلف أو المغاير في المجالات كلها، بصفته الوضع الطبيعي للحياة، والشرط الأساسي للثراء النَّاتج من التنوّع. فلن نستطيعَ إذن استيعاب المعطيات والوقائع المكوّنة لمواقفنا وآراءنا بدون حوار وتلاقي، ولن نستطيع أبداً نحن أبناء

(1) ينظر: كمال الدّين الإسلامي وحقيقته ومزاياه: ص80 – 90.

(2) ينظر: أسس الحكم في الإسلام (الشورى والعدل والمساواة): د. صالح السّدلان، ط1 دار بلنسية – الرِّياض: 22، دستور للأمّة من القرآن والسُّنَّة: د.عبد الناصر توفيق العطار، ط دار الفكر – بيروت / لبنان 1989م: ص82.

(3) ينظر: الضوابط الأخلاقيَّة: د. محمود بابللي، بحث نشر في مجلة الجامعة الإسلاميَّة في المدينة النبويَّة / السعودية، العدد (8)، لسنة 1423هـ – 2002م: ص54.

الوطن الواحد أن نتقاربَ أو نتفاهمَ دون أن نتحاور. فإذا لم يكن هنالك حوار بيننا، فسوف ينطوي كلُّ واحد منَّا على ذاته وتقع القطيعة بيننا؛ لأنَّ البديل الوحيد عن الحوار هو القطيعة والضغينة اللتان ستؤديان إلى انتشار ثقافة الشكِّ والحذر ، التي ستقودنا إلى العنف والتصادم والتقاتل.

المطلب الثاني: أثر ضعف ثقافة الحوار .. في تكريس ظاهرة التطرُّف

إنَّ المتأمِّل في أصل الحوار يجد أنه وجد مع الإنسان بل وجد قبل وجود الإنسان ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم من حوار الله جلَّ وعلا، وإبليس عند خَلْق آدم عليه السلام: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12]، ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:32] «وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة؛ لأنه قال في الجواب ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:33]، فقوله ﴿خَلَقْتَهُ﴾ خطاب الحضور لا خطاب الغيبة، فقول بعض المتكلمين أنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله ضعيف».[1]

وهذا يُدلِّلُ على أنَّ الحوار من أهمِّ أسس الحياة الاجتماعية وضرورة من ضروراتها، فهو وسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته وميوله وأحاسيسه ومواقفه ومشكلاته وطريقه إلى تصريف شئون حياته المختلفة، كما أنَّ الحوار وسيلة الإنسان إلى تنمية أفكاره وتجاربه وتهيئتها للعطاء والإبداع والمشاركة في تحقيق حياة متحضرة، إذ من خلال الحوار يتمُّ التواصل مع الآخرين والتفاعل معهم. والفرد يستطيع أن يتواصل مع من حوله حوارياً مستخدماً فنون اللغة والحوار سواء كان ذلك بالاستماع أو الحديث أو القراءة والكتابة، أي أنَّ الفرد يتواصل ويتحاور مع من حوله. ومن هنا نجد أنَّ الحوار يُعدُّ ظاهرة صحية في المجتمع وركيزة فكرية وثقافية، وحينئذٍ فإنَّ ضعف الوعي في ثقافة الحوار، وعدم تقبل الآخر يودي بنا إلى لغطٍ واسع وتخوِّف شديد، نتيجته التطرُّف والغلوِّ ومن ثمَّ تدهور يحمل بين طيَّاته العنف والصِّراع محتملاً الصِّدام في عصر الصَّحوة الإسلاميَّة، وهذا ما ترفضه

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن: 7/ 167.

الوسطيَّة العادلة. والمتتبع لطبيعة أوضاع بعض المعاصرين يجد أنَّ السِّمة الغالبة عليهم طغيان الاستبداد، وطغيان ثقافة الرَّأي الواحد، وانتشار مظاهر الابتداع وغلبتها على مظاهر الابتكار والإبداع وشيوع نزعة التقليد والاحتكار، وتجريم حق الاختلاف، وترجيح لغة العنف، لا الحوار، فآثرت الإذعان للأفكار الضالة والمنحرفة، ممَّا أدَّى إلى انتشار مناخ الاستخفاف برأي الآخر المختلف ورفضه وقد حاولتُ من خلال هذا البحث أن أثبتَ أنَّ أصحاب مثل هذه النظريَّات المتطرِّفة، الموغلة في التشاؤم، يهدفون إلى تحويل العالم إلى عالم نمطي موحَّدٍ متشابهٍ تـُلغى فيه العدالة الإنسانيَّة، والقيم الحضاريَّة وثقافاتها، وتذهب سدى، وهم في ذلك يتوهمون أنَّ الإسلام سيكون عَصيَّاً عن اجتذابه واحتوائه واستيعابه واستسلامه؛ لأنَّهم يغفلون قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:118] «أي أهل دين واحد إمَّا أهل ضلالة أو أهل هدى، وقيل معناه جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في ذات بينهم على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا في أديانهم اختلافاً كثيراً لا ينضبط، وقيل مختلفين في الحق أو دين الإسلام».[1]

إنَّ القطيعة الحاصلة بين المسلمين وغيرهم، وبين أبناء الأمَّة الإسلاميَّة الواحدة ومنها: الحجاب المشاهد بين المفكرين والمثقفين، وبين الأستاذ وتلميذه، وبين المدارس التعليميَّة، وبين موظفي الدَّوائر في البلد الواحد، فهذا كله يحول دون انسجام المواقف وتقارب المبادرات . على الرَّغم من آثار الدَّعوة إلى الحوار البنَّاء وتثقيف المجتمعات بهذا الموضوع والدَّعوة إلى نبذ الكراهيَّة وتحقيق السِّلم – الخارجي والدَّاخلي– والمُساواة الاجتماعيَّة، ممَّا أصبحت تدعو إليه وسائل الإعلام العالميَّة والمحليَّة منذ أمدٍ بعيد، كلُّ ذلك لا يكاد يظهر على عمل الطبقة المتدنّية والمتشرذمة من الفئة الضالة ، السَّاعية إلى تخريب العباد والبلاد على السَّواء، والذين تتحكم فيهم الأهواء والأفكار الهدَّامة، كلُّ ذلك من أجل تكريس ظاهرة التطرُّف والغلوِّ، وتحقيق روح العداء والظلم والاستبداد والكراهيَّة بين المسلمين وغيرهم

(1) المصدر نفسه: 6/ 263.

عامَّة، وبين المسلمين مع بعضهم خاصَّة.

لذا فإنَّ المسلمين اليوم مُطالبون أكثر من غيرهم، بالارتقاء إلى مستوى قيم الإسلام الأصيلة – الدِّينيَّة والأخلاقيَّة والثقافيَّة– والمتسمة بالرِّفق واللين، ولا يكون ذلك إلا من خلال الابتعاد عن الفكر المتطرِّف، ونبذ تطرُّف الفكر والهروب منهما؛ للتخلص من إشعال الفتن، وإيقاد نار العنف والإرهاب. والاتجاه نحو تنشيط ثقافة الحوار العالمي والمحلي وتقويتها، وأيّاً كان الحوار سواءً كان على الصَّعيد الدِّيني أو التعليمي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السِّياسي مكتسياً روح العدالة الإنسانيَّة طامحاً في تقريب وجهات النَّظر المختلفة ، معتمداً الطابع العملي الجاد في كلِّ جُرأة وصلابةٍ وثباتٍ من غير ترددٍ، والانفتاح على العالم ومتغيِّراته وتطوَّراته؛ تلبية لتحقيق المصالح الأساسيَّة ودرأ المفاسد.

حينئذٍ فعلى العلماء والدُّعاة والمفكرين والمثقفين أن يدعو الناس جميعاً مسلمين وغيرهم إلى تجاوز مرحلة الأحقاد والضغينة إلى مرحلة الاستئناس وعدم الخوف من الآخر، ودعوتهم إلى الجلوس إلى مائدة التحاور والتفاهم؛ لحلِّ المشاكل العالقة ولاسيَّما العصريَّة منها. وتكريس عمليَّة الاتفاق على قضايا وجوامع مشتركة يُمكن أن تسهمَ في قطع أشواط في مسيرة الحوار المتحضر المنشود بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وبقيَّة الأديان وبين الإسلام والغرب. مستندين في بثِّ ثقافتنا للحوار مع الآخر ولاسيَّما المخالف على الخلفيَّة الفكريَّة والثقافيَّة المنبثقة من القرآن والسُّنَّة والمستنبطة منهما؛ لتصحيح الأفكار الضالة والمصطلحات المشوِّهة، معتمدين عليهما في تحقيق الوسطيَّة ودفع الإرهاب وتقريب وجهات النَّظر وبثِّ روح التسامح والتصالح، فضلاً عن الدَّعوة إلى الأسس القيِّمة والأخلاقيَّة التي تفيد في تقويم وتهذيب وتصويب المسار التحاوري المعتبر.

ومن هنا أقول: إنَّ في الوقت الذي يُطالَبُ فيه المسلمون بالعودة إلى قيم الإسلام الأصيلة ومنها انتعاش ثقافة الحوار للتخلص من ظاهرة التطرُّف .. أيضاً الغربيُّون كافة مُطالبون بالعودة إلى قيم المسيحيَّة الأصيلة – وليست المحرَّفة– قيم التسامح والمحبة والتفاعل والتعايش المشترك والاحترام المتبادل؛ لتحقيق الوفاق مع العالم الإسلامي. وإنّهم لمطالبون أيضاً بالتفهم الحقيقي لثقافة الحوار وتنشيطها وتطبيقها على أرض الواقع وتطبيعها مع المسلمين؛ من أجل التفاعل المنشود، وبثِّ روح التسامح والتواصل والتفاهم؛ من أجل مبدأ

التعايش، وإعلان رفع الظلم والعُدوان والاستكبار والهيمنة، ونبذ الأفكار المتطرِّفة والأعمال الإرهابيَّة والإجراميَّة وإنكارها أينما حلَّت وعلى المستوى العالمي كله؛ وذلك من أجل تهيئة المناخ المناسب – المتطلع إليه– لإقامة جسور الحوار البنَّاء مع المسلمين، ولاسيَّما أنَّ هنالك قيماً دينيَّة وإنسانيَّة مشتركة بين الإسلام والغرب كحضارتين عالميَّتين، إذ تعد نقطة انطلاق أساسيَّة في كلِّ حوار جاد ومثمر، يُنتظر منهما اتخاذ حوار بنَّاء يقودهما نحو طموح إنسانيٍّ في أعلا قيم التبادل والسِّلم. ممَّا ينبغي على الطرفين استثماره والتأكيد على أهميَّة توظيفه في سياق احترام الحياة الإنسانيَّة والتواصل الحضاري، الذي يرتبط بصورة أساسيَّة بمسائل التعاون، والسَّعي من أجل الخير والأمن والسَّلام ورفض الإرهاب العالمي ومقاومته، ونبذ الظلم والطغيان، وتفهم مبادئ الآخرين وتوجهاتهم وقناعاتهم، ودعوتهم إلى قيم الإفصاح الودِّي والمحبة والتسامح واللقاء؛ من أجل العمل المشترك في سبيل خدمة البشريَّة وإنقاذها من كلِّ فكر متطرِّف منحاز منغلق.

ولا بد أن تكون قيمة الموضوعيَّة هي أساس كلّ حوار بيننا وبين الآخرين، فليس من الإنصاف أن نتحاور مع غيرنا وتحكمنا أفكار محددة وإنّ النظرة الأحادية لمن أخطر الأمور في سبب ضعف ثقافة الحوار، ونحن بحاجةٍ بها ماسَّة إلى تشجيع الحوار الطموح الحوار الذي يبني ولا يهدم، الحوار الذي يُبنى على العدل والإنصاف والرِّفق، لا على الظلم أو التشدد والتنطع؛ وذلك لسعادة الإنسانيَّة جمعاء، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:46] «فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة».[1]

وتدلُّ الآية على التعاون فيما اتفقنا عليه والإيمان بالألوهيَّة، وأن يعمدَ المتحاور إلى أحسن الأساليب في عرض الدَّعوة والحوار، وأن يختارَ من بينها، فليست الآية مخيرة المحاور بين

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق خان القِنَّوجي (ت1307هـ)، مراجعة عبد الله الأنصاري، ط المكتبة العصرية –صيدا/ بيروت 1412هـ – 1992م: 2/ 262.

الحسن والقبيح، وإنما آمرة إيَّاه أن يختارَ الأحسن بدلاً من الحَسن، وهذا يدلُّ على مدى احتفاء القرآن بمراعاة نفسيَّة محاوريه وتشجيعهم. ولا نبالغ إذا ما قلنا إنَّ الحوار أصبح سِمة عهدنا الحالي. والحوار يعني قيام المجموعات المختلفة للجماعات الإنسانيَّة التي تعيش معاً بحوار هادئ، محاولين بذلك فهْم أحدهم للآخر، والاعتراف به، والوقوف عند الأسس المشتركة الموجودة بينهم؛ لتساعدهم على العيش معاً بأمن وسلام. ومن المهمِّ هنا أن تسجل هذه الحوارات بإرادة إنسانيَّة حُرّة، وبرِضَا الأطراف ودون أيِّ إكراه أو عنف، واتخاذ المقاييس المنضبطة؛ لتأمين ثقافة الحوار وعدم ضعفها، وتشجيع المكونات الاجتماعيَّة المختلفة باستعمال إرادتها بكلِّ حُريَّةٍ؛ لتضمن حقها في التعبير.

والإسلام يملك في هذا الجانب تراثاً غنيَّاً ، إذ قامت تجربته التاريخيَّة – بشكلٍ عام– على احتواء الخصوصيَّات المتنوِّعة لكافة المجموعات المختلفة وقبولها حتى وجدت أديان ومذاهب وثقافات عديدة ، إمكانيَّةَ العيش برغدٍ وأمان في ظلِّ الإسلام. وإنَّ وثيقة المدينة – المشهورة– مثال واضح طبّق في الواقع العملي فعلاً وأنموذجاً رائعاً بقبول الآخر والعيش بسلام .. وللأسف الشديد فمازال الإسلام مغيَّباً عن الوجود ومازال المسلم تحكمه لغة الانفعال لا لغة المنهج، وحتى يكون الحوار حوارًا مثمراً فلابد وأن نميط اللثام عن حقيقة الإسلام وبمعناه الحِضاري ومن هنا فنحن بأمسِّ الحاجة اليوم لتوضيح هذه الصُّورة المشرقة للغرب فكما يقال: «الناسُ أعداءُ ما جهلوا».[1]

فترسيخ ثقافة الحوار بين الأطراف، ولاسيَّما المتنازعة تقتضي تمتين وإعادة طرح جديد يُبنى على الوضوح ويلتزم بأخلاقيَّات الحوار، ويُعيد النظر في الأهداف والوسائل الموصلة إلى ذلك ولن يكونَ هذا نافعاً إلا إذا تمَّ توسيع قاعدة هذا الحوار ليصير حواراً ثقافيَّاً مدنيَّاً، يشمل المكوِّنات والفعاليات الثقافيَّة كلها في المجتمعين المتحاورين. ويبقى الأمل –بمشيئة الله– الذي ينبغي النظر إليه بتفاؤل من طرف أتباع الحضارتين الإسلاميَّة والغربيَّة هو أنَّ حتميَّة الحوار، أمر واقع لا محالة؛ لأنه في نهاية الأمر لابد أن تنتصر الإرادات والعزائم

(1) وهو من كلام ذي النون المصري .. رواه أبو نعيم ينظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي: كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: 2/ 326.

السَّاعية إلى إدارة الحوار ووعيه وتفهمه وتقبل الآخر وفق العمل المشترك؛ للتخلص من مخاطر الشدَّة والانزوائيَّة والإقصاء والتهميش التي تحدق بالبشريَّة.

.. إذن فعلينا جميعاً إعادة تصحيح النَّظر حول موضوع الحوار، والإسهام في تقويته وإيضاح أهدافه، وكيفية استيعاب الآخرين ولنسعى جاهدين لإنشاء قنواتٍ تدعو إلى تثقيف الناس في هذا الخصوص؛ لردع الأفكار المشوشة والمشبوهة؛ علينا كشف الحقائق، وإفهام الرَّأي العام وإقناعه من خلال طرح الحوار الدَّعوي، بأنَّ الإسلام برئ وبعيد كلَّ البعد عن التطرّف والعنف والإرهاب؛ بل هو دينٌ كما جاء ووصل إلينا، دينُ محبةٍ واعتدال وتسامح. وأنَّ الأفعال المنسوبة لفئةٍ قليلةٍ ضالةٍ لا تجب أن تشوّه صورة الإسلام الحقيقيَّة، ولا بد أن يرى الغرب –على وجه الخصوص– الوجه الحقيقي للإسلام، الإسلام المتفاعل والمنفتح على الآخرين، الإسلام الذي يحترم الشرائع الإلهيَّة والأديان كلها. كلّ هذا من أجل أن لا نفقدَ هويَّتنا، ولا نمسي مسلوبي الشخصنة، بدعوة أنَّنا لا نستطيع أن نصدِّرَ أو نتحاور، أو نبقى مكتوفي الأيدي أمام الهجمات الحاقدة، والخزعبلات المغرضة لتشويه صورة إسلام المحبة والسَّلام.

المطلب الثالث: دور القرآن الكريم في ترسيخ حريّة الحوار مع الآخر للقضاء على التطرُّف

إنَّ القرآن الكريم قد حفل بنصوص عدَّة حول الحوار، يأمر به ويحضُّ عليه ويُنوِّه بقيمته ويُقدِّم نماذج من حوارات الأنبياء والمرسلين ويُقدِّم نماذج من الحوارات التي ينبغي أن يسلكها الدُّعاة إلى الله مع مختلف أصناف المدعوِّين من أبناء الحضارات. إنَّ الآليَّة الفريدة في تعامل الإنسان مع قضيَّة الاختلاف، هي الحوار والتفاهم مع الآخر؛ لتبادل وجهات النَّظر والوقوف عندها ليتسنَّى من خلاله توظيف الاختلاف وترشيده بحيث يقود أطرافه إلى التعارف، ويُبعدهم عن الصِّراع العنيف والقطيعة الانعزاليَّة والاحتكار الاستبدادي. فالذي يسعى لإلغاء هذا التعدد كليَّة أو يتجاهله، وهي سنَّة الله في خلقه، فإنّما يروم مُحالاً ويطلب مُمتنعاً، ويتمنَّى مخاطر الشقاق، وقد ناقض الفطرة وأنكر المحسوس. لذا لم يكن حديث الإسلام عن الحوار مع الآخر حديثاً عَرَضياً، بل اهتمَّ به اهتماماً كبيراً من حيثُ المنهجُ والضوابط التي ينبغي للإنسان أن يسيرَ عليها، وعرض لأساليبه ونماذج منه، ممّا يُعطي

المتأمَّل فيه نظرة متكاملة عن الحوار؛ لأنَّ الآخر أو الغير يشكل في المبادئ الإسلاميَّة وجوداً أساسيَّاً إذ ينصب الكثير من الخطاب الإسلامي الوارد في كيفية التعامل الإيجابي مع الآخر؛ لأنَّ الإسلام دينٌ للعالم جميعاً لا يختصّ بفئةٍ منعزلةٍ متعصّبةٍ إذ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء:105،الأنبياء:107، سبأ:28].

فالإسلام يحترم حُريَّات جميع الفئات، حتى وإن كانت متحفظ عليها، وتأريخ الإسلام في كافة عهوده يشهد بأنَّ المسلمين لم يفرضوا دينهم على أحد في البلاد التي فتحوها، وأنه كان من حق أيِّ إنسان أن يظلَّ على دينه الذي يدين به مهما كان هذا الدِّين وتقوم الدَّولة بكفالة هذا الحق والدِّفاع عنه فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: [لما كنا بالشام أتيتُ عمر بن الخطاب ﷺ بماءٍ فتوضأ منه، فقال: «من أين جئتَ بهذا الماء؟ ما رأيتُ ماءً عذباً ولا ماء سماء أطيب منه». قال: قلتُ جئتُ به من بيت هذه العجوز النصرانيَّة فلمَّا توضأ أتاها. فقال: «أيّتها العجوز أسلمي تسلمي بعث الله مُحَمَّداً ﷺ بالحق». قال: فكشفت رأسها، فإذا مثل الثغامة، فقالت: عجوز كبيرة، وإنما أموت الآن فقال عمر ﷺ: «اللهمَّ اشهد»].[1]

وأورد الشوكاني روايات عدَّة – مثلها– بَيْدَ أنَّ في بعضها زيادة وذلك بعد قول عمر ﷺ: «اللهمَّ اشهد». ثمَّ تلا: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقر:256].[2] فلم يقطع عنقها أو يشتمها، بل فوَّض أمرها إلى حكم الله تعالى فحسب.

ولهذا قال العلامة ابن قدامه رحمه الله: «وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمِّي والمستأمن فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجدَ منه ما يدلُّ على إسلامه طوعاً، مثل أن يثبتَ على الإسلام بعد زوال الإكراه عنه فان مات قبل ذلك فحكمه حكم الكفار، وإن

(1) سنن البيهقي الكبرى: باب: (التطهر في أواني المشركين إذا لم يعلم نجاسة)، رقم الحديث: (128): 1/ 32؛ سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني البغدادي (ت385هـ)، تح. عبد الله هاشم يماني، ط دار المعرفة –بيروت 1386هـ– 1966م: باب: (الوضوء بماء أهل الكتاب)، برقم: (1): 1/ 32.

(2) فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ)، ط1 دار الخير –دمشق / سورية 1412هـ– 1991م: 1/ 417.

رجع إلى دين الكفر، لم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام».[1] فتلك خاصيَّة الإسلام، وتلك هي مرتكزات قبول الآخر واحترام خصوصيَّاته وتلك هي خلاص الأمَّة من ظاهرة التطرُّف والإقصاء.

وقد شهد لهذا غير المسلمين حتى قال غوستاف: «إنَّ القوةَ لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانيَّة الإسلام واتخذ العربيَّة لغة له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى».[2]

وهذا أعظم ردٍّ من مستشرقٍ منصفٍ إلى الذين يُطبلون بأنَّ هذا الدِّين قد انتشر بالسِّيف، وليس بالحوار .. ولم يقتصر على هذا حتى قال: «والحق أنَّ الأمم لم تعرف فاتحين رُحماء متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم».[3]

وها هو السّير توماس آرنولد يقول: «لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيِّين بتسامح عظيم منذ القرن الأوَّل للهجرة واستمرَّ هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحقٍّ أنَّ القبائل المسيحيَّة التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حُرَّة، وأنَّ العرب المسيحيِّين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهدٌ على هذا التسامح».[4]وقال أيضاً: «لم نسمع عن أيَّة محاولةٍ مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أيِّ اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدِّين المسيحي».[5]

---

(1) المغني (في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ت241هـ): للإمام موفق الدِّين عبد الله بن قدامة المقدسي (ت620هـ)، ط1 دار الفكر – بيروت 1405هـ: 10/ 96.

(2) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، ط3 دار إحياء الكتب العلميَّة – القاهرة / مصر 1956م: ص127.

(3) المرجع نفسه: ص605.

(4) الدَّعوة إلى الإسلام: سير توماس آرنولد، ط القاهرة 1970م: ص59.

(5) المرجع نفسه: ص99.

وبعد تلك الحريَّة، تأتي حُريَّة الرَّأي والتعبير: والتي تعني الثمرة المنطقيَّة التي ينتجها الفكر السَّليم والاعتقاد الحرّ – سواء استقرَّ الرَّأي نفسه مذهباً ومعتقداً، أو ظلَّ ظنّاً ومحتملاً يتفاعل به صاحبه مع الآخرين–، كما أنَّ حُريَّة التفكير لا تعني شيئاً ما لم يصاحبها حُريَّة التعبير فالتعبير هو الآلة التي توصل الفكرة، بَرة كانت أو فاجرة للناس، ولا يقتل الفكرة إلا الصَّمت، أو خذلانها من الوصول للناس.[1]

ومن هنا فلا ريب أنَّ التفاهم عن طريق الحوار حُريَّة تؤكد كرامة الإنسان أيّاً كان، ويشجعه على التفكير والعمل والتعايش والتفاعل والتعاون مع غيره؛ لتحقيق الخير والتقدُّم للمجتمع، فإذا ما رفض الحوار وحُوربت ثقافته سيؤدى بالمجتمع نحو الخراب والدَّمار وانتهاك حقوق الآخرين وعدم تقبلهم، فضلاً عن انتشار التطرُّف والعنف. لذا فإنَّ حُريَّة الرَّأي ، كانت سبباً من أسباب وحدة الشعوب وترابطها وتعاونها في مجالات العلوم والفنون المختلفة، وكانت حلقات الحوار تقام في كلِّ المدن الكبرى في المساجد والمعاهد، إذ يقودها علماء ومفكرون ومؤرِّخون ويكون من حق كلِّ إنسان أن يُشاركَ فيها بحُريّةٍ تامَّةٍ. والقرآن الكريم الذي كفل حُريَّة التعبير، يوجّهنا إلى خير الأساليب التي تتحقق بها هذه الحُريَّة، فيقول تعالى:﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء:53]، ويقول:﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾، [النساء:9،الأحزاب:70]، ﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت:46]، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:34]. ويؤكِّد على أهمِّيَّة القول السَّديد والدَّعوة الطيَّبة بقوله:﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة:263].

ونحن في هذا العصر نُدرك أنَّ الحُريَّات بأنواعها المختلفة، في العقيدة والفكر والرَّأي والتعبير، تمثل أهمَّ الانجازات التي حققها الإنسان لنفسه في العصر الحديث، ونؤمن أنها أساس كلِّ حياة إنسانيَّةٍ كريمةٍ ولا غنى عنها لأيِّ حِضارة تنشد التقدُّم العلمي والاجتماعي

(1) ينظر: دور حريَّة الرَّأي في الوحدة الفكريَّة بين المسلمين: عبد المجيد النَّجار، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا 1413هـ– 1992م: ص43– 44؛ حريَّة الفكر وترشيد الواقع الإسلامي: عاصم أحمد عجيلة، ط2 عالم الكتب – القاهرة/ مصر 1410هـ – 1990م: ص 19.

والإنساني. وهذه الحُرِّيَّات كلها جاءَ بها الإسلام، ودعا إليها وكانت من أهمِّ أسباب القضاء على الانعزاليَّة والتشدد والتقوقع، فضلاً عن أهمِّ أسباب تقدّم العلوم والفنون والآداب والتاريخ التي قامت عليها الحضارة الإسلاميَّة حتى عصر النَّهضة.

ونحن حين نقرِّر ذلك ندرك أنَّ الرّوح الإسلاميَّة التي نؤمن بها، تدعوان وتؤكدان على الحُرِّيَّة والحوار ولاسيِّما الحوار المرتبط بالفكر والرَّأي؛ لأنَّنا نعلم أن تقدّم الإنسانيَّة وازدهار حضارتنا وسيادة الرّوح الإنسانيَّة، إنما يرتبط أشد الارتباط بما يتحقق لأفراد المجتمع الإنساني من حُريّةٍ فكريَّةٍ ودينيَّةٍ، ومن حقوق مقدَّسة في إبداء الرَّأي والتعبير، وقد كان ذلك كله من دعائم الإسلام.[1]

وها هو العالم الإنجليزي توماس آرنولد يشهد للحُرِّيَّة والحوار التي قرَّرهما الإسلام وحضارته والتي وسعت التنوّع والاختلاف وأتاحت إنقاذ النصرانيَّة الشرقيَّة من الإبادة الرُّومانيَّة البيزنطيَّة حتى ليمكن القول: «إنَّ بقاء النصرانيَّة الشرقيَّة هو هبة الإسلام».[2]

لذلك فإنَّ ممارسة الحوار والتفاهم بين الأديان في إبداء الرَّأي وما يعني من ظهور بوادر الاختلاف بين الآراء يجب ألا يؤدِّي في ضوء ممارسة حُرِّيَّة الرَّأي إلى حجرٍ على تلك الآراء والتصوّرات، بل إنَّ ما يجب القيام به هو توحيد تلك الجهود والاستفادة من تعدّد الآراء واختلافها؛ للوصول إلى قواسم مشتركة، تخدم القضيَّة الإنسانيَّة ولا يُفرِّط بأيِّ حق من الحقوق التاريخيَّة. فاختلاف الآراء وتعدّدها سُنَّة إلهيَّة في البشر، لكن التعامل معها بإيجابيَّةٍ هو ما يُغني حالة الوفاق، فيما يؤدِّي الاستبداد بالرَّأي والتفرّد باتخاذ القرار إلى تشتيت الجهود وزعزعتها ونثر بذور التشرذم.[3]

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب، ط دار إحياء الكتب العربيَّة – القاهرة / مصر: ص3182، الإعلام في القرآن الكريم: د. محمد عبد القادر، ط1 مؤسسة فادي بريس – لندن، وتوزيع دار قتيبة – بيروت 1405هـ – 1985م: ص126.

(2) الدَّعوة إلى الإسلام: ص729 – 730.

(3) ينظر: القرآن وحُرِّيَّة الرَّأي: هشام منور، مقال منشور في مدوّنات أمين على شبكة الأنترنت للأعلام العربي، وبتاريخ: 29/ كانون الثاني/ 2007م: ص2.

.. وإذا استطعنا أن نستوعب هذا وحرَّكنا قضيَّة الحوار مع الآخرين بمعزل عن التشدد والانفعال وتراكم الاحتقان وتعاملنا معه على أساس كونه وسيلة لسلوك الإنسان، ومن ثمَّ القدرة على إبداء ما توصَّل إليه هذا الفكر دون قيد أو مؤثر، وصولاً إلى بلورة منهج حضاري إسلامي في إعمال العقل لنيل المعارف، فإنَّ ذلك سيُسهم بلا شكٍّ في التوصُّل إلى حدٍّ أدنى من الوحدة الفكريَّة للأمَّة، تكون ركيزة للتأسيس والبناء فيما بعد، ولا يُمكن أن نتخيَّلَ عدالة اجتماعيَّة بدون استقلال فكريٍّ ولا بد من أدب في الحوار يحترم فيه صاحب السُّلطة.

والحوار في القرآن الكريم – كما تقدَّم – أسلوب ووسيلة في الدَّعوة إلى الله، وفي دحض الشُبُهات والافتراءات، وفي ردِّ الشاردين والجاهلين والغافلين من أبناء المسلمين إلى حياض الإسلام، إذ إنَّ الحوار ترياق فعَّال لمعالجة داء الاعتداء، فبالحوار تنفتح مغاليق الشُبُهات، وبالحوار تدرأ الكثير من مكنونات النفس وتراكمات العقائد الباطلة وللحوار في الإسلام مساحات شاسعة، من بينها حوار المخالفين في الدِّين لما له من صور وأبعاد وأهداف وآثار من مادة علميَّة لها ظلال عميقة في واقع التطبيق.

والمتتبع للحوار القرآني يجد أنَّ طرحه للخطاب يتمثل بحوار هدايةٍ ودلالةٍ وجدل إقناع وإقحام على البراهين العقليَّة، ولفة الأنظار في الآيات الكونيَّة حتى يهتدوا إلى خالقها فيعبدوه ويُعظموه وحده لا شريك له وينبذوا عبادة غيره من الأصنام والأوثان التي لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً.

لذا فإنَّ دعوة المحبطين إلى مُحاربة مسألة الحوار بين الأديان كافة والمسلمين خاصَّة ، هي دعوة للإقصاء ونشر التطرّف ومن ثمَّ العنف، وتحريم التفاعل الإنساني، والثقافي بين أتباع الحِضارات بل تهدف إلى انتشار النظرة الاستعدائيَّة. بينما يجد الدَّارس والباحث المتتبع أنَّ الحوار مع الآخرين – أيّاً كانوا– هو مدعاة للأمن والاستقرار والنهوض بالمجتمع، وهو شأن ثقافي متطوِّر يتناول آفاق الانفتاح والتواصل الإنساني التي يشترط تحققها الاعتراف بالآخر، وتفهم مُشكلاته ومقاصده وإدراكه على قدم المُساواة وعدم استهدافه بالتمييز أو التحقير أو الإلغاء أو محاولة ذلك.

وبحكم عالميَّة الخطاب الحضاري الإسلامي، وشموليَّه مفهوم التفاعل الحضاري فإنَّ مسألة الحوار[1] تشكل أحد أكثر الوسائل فاعليَّة لتحقيق التعارف الحضاري، والوصول بوعي الإنسان إلى لحظات الإبداع الحضاري الجماعي الذي يُسهم فيه أبناء الإنسانيَّة المخلصين من كلِّ ثقافةٍ ودين وجنس عملاً من أجل نفي الخبث الحضاري واستنبات بذور التفاعل الحضاري بوصفه مدخلاً للتعارف والتفاهم والتعاون ومواجهة تحديات الحياة في عصر العالميَّة والعولمة.

إنَّ الاستثمار في مسألة التعارف الحضاري كما يطرحها الإسلام يعد من المداخل الأساسيَّة لتشكيل خطاب تفاعلي حضاري يدفع بأمَّتنا وحضارتنا إلى آفاق العالميَّة الإسلاميَّة قال الرّافعي: «فعالميَّة الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميَّتين منفتحتين على حضارات الأمم ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب مؤثرتين ومتأثرتين ... يهدف أوَّلاً وقبل كلِّ شيء إلى الوحدة الإنسانيَّة العامَّة، والزمالة العالميَّة الشاملة بأن يكون الناس جميعاً إخوة متوادِّين متحابِّين متساوين متكافئين حتى يستطيعوا أن يحققوا الرِّسالة العظمى التي خلقهم الله من أجلها».[2]

ومن هنا يتطلب الأمر النَّظرَ إلى تحريك مسألة الحوار وتنشيطها ليس لمحاربة التطرُّف فحسب أو بوصف الحوار مجرد عمليَّة تبادل للمعلومات والأفكار والآراء، وليس مجرد نقاش وتناقل للمعاني، وليس مجرد وسيلة للتفاهم الإنساني ولمعالجة المشكلات الإنسانيَّة ولكن فضلاً عن ذلك أن ينظر إلى الحوار مع الآخر على أنه مدخل حيويٌّ للتعارف الحضاري والدِّيني والتعليمي، الذي يُشكل بدوره نقطة الانطلاق الكبرى في تجديد الذات وتجديد الوعي، وبالتالي الدُّخول في فعل يقود إلى التفاعل الصَّادق ويكون مرتكزاً لأداء

(1) ينظر: (أطروحات الحركات الإسلاميَّة في مجال الحوار مع الغرب)، الغرب وبقيَّة العالم بين صدام الحضارات وحوارها: حسن الترابي، ط1 مركز الدِّراسات الإسلاميَّة والبحوث والتوثيق – بيروت 2000م: ص133.

(2) الإسلام دين المدنيَّة القادمة: مصطفى الرَّافعي، ط الشركة العالميَّة للكتاب – بيروت 1990م: ص14، 106.

رسالة إزاء الذات والآخرين معاً، ويكون محوراً للتربية التعليميَّة لشخصيَّة الإنسان المتحاور. وبالنسبة للأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة لا يُمكن أن تكون هناك رسالة حضاريَّة باتجاه العودة إلى الرِّيادة والسِّيادة قبل أن تتحقق كلّ شروط الحوار في ذواتنا وواقعنا وثقافتنا ومعارفنا ونظمنا التربويَّة والأسريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والإعلاميَّة وفي ضوء الإطار التحاوري المخلص الذي يؤسِّس لإنسانيَّةٍ تتفاعل على أساس التقوى والصَّلاح والنفع العام للبشريَّة.(1)

إذن فكيف يمكننا أن نتخلَّى عن الحوار، والله تعالى يأمرنا بالدَّعوة إلى إقامة الحجج على الآخرين وبالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[الإسراء:53].

وهذا يعني قل يا مُحَمَّد لعبادي إذا أردتم إيراد الحُجَّة على المُخالفين فاذكروا تلك الدَّلائل بالطريق الأحسن، وهو أن لا يكون ذكر الحُجَّة مخلوطاً بالشتم والسَّب ذلك لأنَّ ذكر الحجَّة لو اختلط به شيء من السَّب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:108] فيزداد الغضب والاحتقان وتتكامل النّفرة، ويمتنع حصول المقصود. أمَّا إذا وقع الاقتصار على ذكر الحُجَّة بالطريق الأحسن الخالي عن الشتم والإيذاء، أثر في القلب تأثيراً شديداً.(2)

وهذا تقدُّمٌ للحوار والمقابلة من غير تراجع ولا خوف والملاحظ اليوم أنَّ من بين المعضلات الكبيرة التي تواجه الأمَّة، هو الخوف من الآخر وتجنّب الحوار معه، على عكس ما نجده في القرآن من محاورته للحضارات وعلى لسان الصَّفوة المختارة وهم الأنبياء وكيف بدأهم الحديث ثمَّ استمرَّ معهم على الحوار، بينما تسعى بعض الفئات الضالة وضع الحواجز أمام أيِّ تقارب مع الآخر وباستمرار؛ خوفاً من مواجهته فكريَّاً، وتحصّناً ضد انفتاح تابعيه على الرَّأي الآخر، وخشية ضياع مصالحه، وتقوّض سلطته الدَّاخليَّة على جماعته؛ لذلك

(1) ينظر: دراسة قرآنيَّة في فقه التجديد الحضاري: سيد دسوقي حسن، ط دار نهضة مصر – القاهرة 1998م: ص23– 24.

(2) ينظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): 10/ 73.

حرص بعضهم وباستمرار على مخاصمة الأفكار الأخرى، وعدم دعوة أصحابها وترك إقامة الحجج والبراهين عليهم، بل توجيه التهم لها بالتآمر، عبر تطرّفهم وغلوِّهم وتذرّعهم بأدلة تافهةٍ لا نصَّ لها في القرآن أو السُّنَّة، ممَّا يؤثر سَلباً على سماحة هذا الدِّين الحنيف.

وأخلصُ بهذا إلى إنَّ إحداثيات الحوار مع أبناء الحضارات تجلَّت فيها معالم الاستقلاليَّة التامَّة والحُريَّة المطلقة التي أعطيت لهم كافة إذ قوبل توترهم وردّهم العنيف بالدَّعوة إلى إبداء الدَّليل العلمي، وإذ عجزوا عنه أقيم عليهم الدَّليل العلمي والواقعي من غير تشدد على بطلان دعواهم دون أن يتعدَّى ذلك إلى أيِّ شائبةٍ من شوائب الإكراه المادِّي أو النَّفسي أو الفكري، في حين نرى موقف الإسلام من الحوار مع الآخرين موقفاً إيجابيَّاً تامَّاً على الرَّغم من وجود أديان أخرى ترحب بالحوار أيضاً، بَيْدَ أنَّ موقف الدِّين الإسلامي من الحوار أكثر إيجابيَّة وقبولاً إلى حدٍّ يُمكن وصفه بأنّه دين الحوار؛ ذاك لأنّه دين عامّ للبشريَّة وليس ديناً خاصّاً لجماعةٍ دون أخرى، لذا قامت عالميَّة الإسلام على أساس من عالميَّة الإله الواحد وعالميَّة التوحيد ووحدة البشريَّة، إذ الإله الواحد الخالق إلهٌ لكلِّ العالم الذي خلقه، ودين البشريَّة دينٌ واحدٌ يقومُ على أساس من التوحيد وهو عقيدة البشريَّة جمعاء واستناداً إلى هذا المبدأ اتجه الإسلام إلى استخدام الحوار استخداماً جليَّاً في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة، وكان من أولاها الوصول بالإسلام إلى غير المسلمين. وإذا ما نظرنا إلى الحوار بهذه النظرة الإنسانيَّة، فإنّنا نكون قد جعلنا من الحوار ثقافة حضاريَّة وقضيَّة مصيريَّة يتحدد بها مصير الأمَّة كلها في حاضرها ومستقبلها، وفي صلتها مع ذاتها ومع العالم المحيط بها. ويتحدد به مسار التعايش والتواصل والتعارف الحضاري القادم وعمقه وغاياته وآفاقه.

وإنَّنا بمقدار ما ندرك قضيَّة الحوار – المؤسّسة على منظومة التفاهم– بوصفها قضيَّة متجاوزة تماماً لكلِّ الشكليَّات السِّياسيَّة والثقافيَّة التي تهتمُّ كثيراً بتحويل قضيَّة الحوار إلى مجرد وسيلة تهدئيَّةٍ أو تسكينيَّةٍ تعالج بها المشكلات الجزئيَّة بمقدار ما نستعيد القيمة التربويَّة والحضاريَّة الصَّحيحة والفعَّالة للحوار .. ومن هنا وفي ظلِّ وضع الأمَّة الخطير لا يجوز لنا بتاتاً أن نتصوَّر الحوار بصورته السِّلبيَّة، ولا يجوز لنا أن نوظفه توظيفاً غير سليم، بل علينا أن

نعود بالحوار إلى أصوله الكبرى.[1]

لذلك باتَ لزاماً على كلا الطرفين – المحاوِر والمحاوَر- البحث عن سبل التلاقي والتواصل عن طريق البحث عن أرضيَّةٍ مشتركةٍ للتعاون بدل المجابهة والانفتاح بدل الانغلاق، والتفاهم بدل التجاهل. إنّ هنالك تعاوناً اقتصاديَّاً وثقافيَّاً وسياسيَّاً بين العالم الإسلامي والغرب لكنه ليس كافياً ولا يندرج في غالب الأحيان في السِّياق العام لمنظومة الحوار الحيوي بين الجانبين، وسبب ذلك - ببساطة- هو أنَّ تنسيق المصالح والمنافع السِّياسيَّة والاقتصاديَّة ينبغي أن يسبقه الفهم الحقيقي المتبادل على الصَّعيد الثقافي والحضاري والدِّيني .. فالعالم اليوم مُطالب بالعودة إلى قيم المحبة والحوار والتسامح، ورفع الظلم والعدوان والاستكبار من أجل تهيئة المناخ الملائم لإقامة جسور الحوار المثمر والبنَّاء. هذا وإنّ لدراسة مسألة ثقافة الحوار أطراً منهجيَّة أساسيَّة من أهمِّها، ترسيخ الوعي على ضرورة المُعالجة المنهجيَّة الاستراتيجيَّة لمسألة التفاعل الحضاري. وإنَّ أهمَّ شيءٍ ينبغي التفكير فيه اليوم هو صياغة الوحدة التحليليَّة الأساسيَّة أو الإطار التحليلي والمناسب لمُعالجة قضايا التفاعل الحضاري.[2]

ومن الأطر أيضاً ضرورة الوعي بطبيعة تشكيل الإنسانيَّة في وضعها الحضاري العالمي، إذ تعيش الإنسانيَّة اليوم وضعاً عالميَّاً حسَّاساً ومُعقداً ومُحرجاً للغاية. والإنسان الذي يُعاصر في هذه اللحظات التاريخيَّة الكبرى تحوّلات ضخمة، ومعقدة وسريعة في مجال المعرفة والمعلومات والوعي وفي ميدان الوسائل والتقنيَّة والتكنولوجيَّة، وفي مجالات أخرى.[3]

والحريَّة كما قرَّرتها الشعوب كافة، يحدها إطار اجتماعي يمنع تعدي الناس بعضهم على بعض لأيِّ سبب من الأسباب؛ لأنَّ هذا يُمثِّل عُدواناً على حُريَّة الآخرين وهضماً لها. وفي

(1)ينظر: (حوار الحضارات – شروطه ونطاقه-)، الغرب وبقيّة العالم بين صدام الحضارات وحوارها: محمد سليم العوا، ط1 مركز الدراسات الإسلاميَّة والبحوث والتوثيق –بيروت 2000م: ص256.

(2) ينظر: مناهج التجديد – سلسلة آفاق التجديد -: عبد الجبار الرِّفاعي، ط1 دار الفكر –بيروت ودمشق 2000م: ص57 – 58.

(3) ينظر: المنهج النبوي والتغيير الحضاري: عبد العزيز برغوث، ط1 سلسلة كتاب الأمَّة، برقم: (43)=

القرآن الكريم نرى -كما تقدَّم- تأكيداً لمبادئ الحُرِيَّة في كثير من الآيات، وهذا التأكيد يشمل كافة الجوانب المختلفة لحريَّة الإنسان وحقه في التعبير والسُّلوك والتفكير والعمل بالمفهوم المعاصر لمعنى الحريَّة من حيث استقلال الفكر، دون أن تفرضَ عليه من الآخرين مُعطيات وأدوات أو قناعات من شأنها أن تقيِّده، أو تلزمه بسلوك طرائق معيَّنة من شأنها أن توصله إلى نتيجةٍ مبتغاة سلفاً، حقاً كانت أو باطلاً.[1]

لذا أعطى القرآن الكريم حق التعلم وحُريَّته وإبداء الرَّأي للإنسانيَّة جمعاء، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة:31 - 33]، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: 1-5]. فمن حقّ كلِّ فرد أن يأخذَ من التعليم ما يُنير عقله ويرقي وجوده ويرفع من مستواه. ومن حق الإنسان كذلك، أن يبيِّنَ عن رأيه ويُدلي بحُجَّته ويجهر بالحق ويصدع به. والإسلام يمنع مصادرة الرَّأي ومُحاربة الفكر الحُرّ، إلا إذا كان ذلك ضارّاً بالمجتمع.

إذن ما ينقذ العالم بأسره ويخلصه من الاختزال المتطرِّف والمتشدد ، هو اللجوء إلى حتميَّة الحوار وتثقيف الأمم بهذا المبدأ الطموح إذ لا يمكن للغرب أن يمتصَّ الإسلام أو يبلعه، كما لا يُمكن للمسلمين أن يعزلوا الغرب، وفي الوقت نفسه لا يُمكن للحاقدين المتطرِّفين والإرهابيِّين تهميش مبادئ الإسلام وسماحته عن طريق نشر التخوّف منه، والإيهام بأنَّه يسعى إلى إقصاء الآخرين وإشعال فتيل النزاع معهم.. لذا فقد آن الأوان لوضع حدٍّ

= وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة – قطر 1995م: ص65؛ مقوِّمات التجديد الحضاري عند بديع الزمان النورسي: للمؤلف نفسه، ط1 مركز الفكر الحضاري والتربية – كوالالمبور / ماليزيا 1999م: ص19.

(1) ينظر: دور حرية الرّأي في الوحدة الفكريَّة بين المسلمين: ص43؛ حُريَّة الفكر وترشيد الواقع الإسلامي: ص19.

للنظريَّات المتطرِّفة التي تتوهم وتريد أن تـُوهِم بأنَّ ديننا لا يصلح التعامل معه كتيار رئيسيٍّ يصبُّ في الحضارة الإنسانيَّة الشاملة.

المطلب الرّابع: نظراتٌ قرآنيّة حول أسباب ضعف ثقافة الحوار مع الآخر، ومعالجتها في حلّ أزمة التطرُّف

ويتضمَّن ما يأتي:

المحور الأوَّل: أسباب ضعف ثقافة الحوار في تغذية التطرُّف

إنَّ المتأمِّل في هذا الضعف يجده في واقع الأمر راجع إلى أسباب كثيرة كلها تزيد في نشأة التطرُّف وأسلوب الفكر الضالِّ، وإقصاء الآخر وعدم احتوائه.. وسأكتفي بالإشارة من بين تلكم الأسباب إلى أهمِّها:

أوَّلاً: ضعف الوعي الدِّيني والثقافة الشرعيَّة في بثِّ روح التلاقي والتحاور مع الآخرين ولاسيَّما مع غير المسلمين، فضلاً عن قلة الوسائل الإعلاميَّة في الدَّعوة إلى قبول الآخر، وكيفيَّة طرح الآراء معه، وانعدام تحصين المسلمين بالثقافة الإسلاميَّة الصَّحيحة ضد الفكر المعادي ممَّا يُفضي إلى انتشار التطرُّف والغلوِّ في المجتمع، ولاسيِّما عند إغفال الأحسن، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت:46]، ويقول أيضًا: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:96] «أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها وهي الصَّفح والإعراض عمَّا يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك».[1] قال مجاهد: (أي أعرض عن أذاهم إيَّاك).[2] وقال عطاء: (ادفع

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن: 9/ 147.

(2) أورده الطبري في تفسيره جامع البيان في تأويل القرآن: لأبي محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تح. أحمد محمد شاكر، ط1 مؤسسة الرسالة 1420هـ – 2000م : 19/ 68؛ موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: د. حكمت بن بشير بن ياسين، ط1 دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة– المدينة المنورة 1420هـ – 1999م: 3/ 211.

بالسَّلام).[1]

ثانياً: الابتعاد عن الوسطيَّة الإسلاميَّة في تقريب وجهات النَّظر، وانعدام روح الثقة والاعتدال والانتصاف والتوازن بين المتحاورين، ممَّا يكون مدعاة للتنافر والتناحر، والميل إلى التطرُّف الفكري والسُّلوكي، والانحراف عن الفطرة، فلا يحفظ حينذاك للنفس نشاطها وإقبالها على الخير ولا يحميها من الأفكار الهدَّامة، والله جلَّ جلاله يقول: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:53] «يأمر الله تعالى رسوله بأن يبلِّغ عباد الله المؤمنين: أن يقولوا في مخاطبات المخالفين من المشركين وغيرهم أثناء حوارهم الكلام الأحسن. والتي هي أحسن: هي المحاورة الحسنة، والكلمة الطيبة: وهي التي لا تختلط بالشتم والسَّب والأذى. والآية هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة وأمثالهم. فيكون المطلوب إلانة القول، وحسن الأدب، وخفض الجناح لأنَّ الشيطان يؤجِّج نيران النِّزاع، ويثير الفتنة والشر، ويوقع الخصام، ويغري بالمقاتلة، فلا يتحقق المطلوب، وتخيب المساعي، وتقع العداوة».[2]

ثالثاً: التعصُّب للرَّأي، وهو من أهمِّ دلائل التطرُّف، إذ لا يعترف للآخر بوجود، فيبتعد عن ملائمة ظروف العصر وفقه الواقع ممَّا يجعل صاحبه بعيداً عن روح المسالمة والمحاورة، ويزداد الأمر خطورة حين يراد فرض الرَّأي على الآخرين بشدَّة، حتى يتجرَّأ فيتَّهمهم بالاستخفاف بالدِّين، أو بالكفر والمروق، وهذا هو الإرهاب الفكري بعينه، وهو أشدّ تخويفاً من الإرهاب الحسِّي. ومن هنا يكون التعصُّب للرَّأي منشأٌ لأمور أخطر وأفدح، ولذا توجَّهت النُّصوص القرآنية ضد هذا المفهوم السِّلبي، ورفضت التعاملَ مع الآخر من هذا المنطلق، فهذا إبليس اللَّعين: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:12] «إنما قال هذا ولم يقل منعني كذا؛ لأنَّ في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه ... ثمَّ علل ما ادعاه من الخيرية بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ اعتقاداً منه أنَّ عنصر النار أفضل من عنصر الطين لأنها جسم نوراني. وقد أخطأ عدوُّ الله

(1) أورده الطبري في تفسيره جامع البيان في تأويل القرآن: 21/ 471؛ والشيخ صدِّيق خان في تفسيره فتح البيان في مقاصد القرآن: 9 / 147.

(2) التفسير الوسيط: د. وهبه بن مصطفى الزحيلي، ط1 دار الفكر – دمشق 1422ه: 2/ 1358.

فإنَّ عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه وطول بقائه، وفيه الأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت، والنار خفيفة مضطربة سريعة النفاذ وفيها الطيش والارتفاع والحدة ... والتراب عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والنار مظنَّة الخيانة والإفناء والطين مُئنة الأمانة والإنماء، والطين يطفئ النار ويتلفها والنار لا تتلفه، وهذه فضائلٌ غفلَ عنها اللعين حتى زلَّ بفاسدٍ من القياس».[1]

رابعاً: إذكاء روح الانتقام والثأر بغير حقٍّ، وانعدام التربية الإيمانيَّة الحقة القائمة على مرتكزات نصوص الوحي، وعدم ترجيح المصلحة العامَّة ، أو الإفادة من قاعدة درء المفاسد، وقلة إدراك التاريخ الصَّحيح وسنن الحياة في واقع الناس.

خامساً: قلة فهم نصوص الوحيين في تدبر مصطلحاتها الدَّاعية إلى قبول الآخر ودعوتها بالحكمة والموعظة الحسنة والابتعاد عن سيرة النبَّيِّ ﷺ العمليَّة، وسيرة الصَّحابة الكرام ﷺ، فضلاً عن انعدام القدوة النَّاصحة المخلصة لله تعالى ودينها ووطنها؛ وتغليب الغلظة على الرَّحمة، قال تبارك وتعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:159] «والمعنى أنَّ لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه، وفيه تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ، ولو لم تكن كذلك بل ﴿ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ جافياً قاسي الفؤاد قليل الاحتمال – حاشاه – ﴿ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ أي لنفروا عنك وتفرَّقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك».[2]

سادساً: وجود رموز فكريَّة تُنَظِّر للسُّلوك المنحرف، وتدعو إلى الأفكار الضالة المتطرِّفة وعدم الأمن والاستقرار، ونشر الفوضى والتخريب وترويع الآمنين في المجتمعات المستقرَّة، وفرض أفكارهم بالقوَّة والتهديد بالسِّلاح، فضلاً عن رفض ثقافة النِّقاش أو التحاور، وإنكار ذلك غلوَّاً وعناداً واستكباراً، مع بثِّ روح الفرقة والحقد والضغينة، والله تعالى يحذِّرنا أن نتَّبع أمثال تلك الأهواء الفاسدة فيقول: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد:37] «ولئن اتّبعت يا محمَّد- على سبيل

(1) فتح البيان في مقاصد القرآن: 4/ 310 – 311.

(2) المصدر نفسه: 2 / 363. (بتصرفٍ يسير جدًا).

الافتراض- آراء تلك الفرق الضَّالة، وهذا يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة، مثل مجاملتهم في باطل عقائدهم وأهوائهم، بعد ما عرفت الحق، وجاءك العلم الصَّحيح، فليس لك ناصر ينصرك من الله، ولا حافظ ولا مانع يمنع عنك العقاب، وينقذك من العذاب. وهذا وعيد شديد لأهل العلم أن يتّبعوا سبيل أهل الضَّلالة، بعد ما عرفوا الدين الحق، وهو أيضًا حسم وقطع لأطماع المعارضين الكفرة في إقرار ما هم عليه، وتهييج للمؤمنين للثبات على دينهم». (1)

سابعًا: الدُّخول في متاهة ردود الأفعال وعدم القدرة على صناعة الفعل وتوجيهه بالصُّورة التي تخدم مصالح الأمَّة، مع غياب الرُّؤى الاستراتيجيَّة البعيدة المدى على جميع المستويات وكافة الأصعدة ، فضلاً عن غلبة منطق الانفراديَّة وحب الحسم الفردي والحزبي للقضايا المصيريَّة، حتى ينتجَ عن ذلك المنطق الإقصائي: (أنا أو لا شيء)، أو منطق العداء لكلِّ مَنْ لا يتفق معنا، وهذه آفة الاقصائيِّين والمتكبرين في عتوِّهم وتجبرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له، ولذلك قال الله حاكيًا حال قوم عاد لما طغوا وتكبروا على ربهم، ثمَّ على نبيِّهم بقوله: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:15]. ومن صور انفراد ومباهاة الطاغية فرعون ومفاخراته أن جعل يستحقر الآخرين ويعيبهم عجبًا وغرورًا فقال عن موسى: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:52]. وهذا ما يوتِّرُ العَلاقات الاجتماعية ويفسد مناخ الحُريَّة وبالتالي يتحفَّز الأقوى في مصادرة حُريَّة الأضعف، بحُجَّة كسبه للجولة، حتى يصبحَ جو الحوار مشحوناً بالمشادَّة الكلاميَّة الباحثة عن الأحاديَّة والانغلاق.

ثامنًا: عدم توفر الإمكانيَّات المطلوبة للتعرُّف على ثقافة الحوار في الجامعات والمدارس التعليميَّة، واتخاذ الطريقة التلقينيَّة واعتمادها كأساسٍ، فضلاً عن اعتبار الحوار تمرَّداً على الأستاذ، استناداً إلى فكرة التسلط التي تحكم عَلاقة الأستاذ بتلميذه، وكذلك تشجيع الحفظ وانحسار ثقافة التدبر والتعقل ممَّا يُقيِّد طاقات المتعلم الإبداعيَّة.

إنَّ تلكم المظاهر أو الأسباب، التي إن بقيت فستقودنا في نهاية الأمر إلى الهاوية، ولن

(1) التفسير الوسيط: 2/ 1172.

يكون بمقدورنا التخلص منها، وإزالة آثارها إلا من خلال نشر ثقافة الحوار المبنيَّة على التسليم بحقِّ الاختلاف والتنوّع، وترسيخ أدبيَّات الحوار لدى الناس جميعاً، ولا يكون هذا إلا من خلال المحور الآتي ..

المحور الثاني: إحياء ثقافة الحوار وترسيخها في معالجة ظاهرة التطرُّف

ويمكنني أن أجمل هذه المعالجات في نقاط تباعاً لما تقدَّم، ومن خلال الوقوف على مقوِّمات نجاح الحوار مع الآخر ونتائجه الإيجابيَّة في القضاء على التطرُّف، وذلك وفق ما يأتي:

أوَّلاً: إذكاء روح التسامح بين الناس؛ تحقيقاً لعدالة الإسلام، ووسطيَّته واعتداله ومُحاربته لكلِّ أنواع التطرُّف والغلوِّ والدَّعوة إلى التعارف والتعايش الإيجابي بين الشعوب والأمم ، مُلقياً الضوء على نظرة القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة في التعدد البشريِّ ومساواتهما المطلقة للناس وحريِّتهم وهو أحد أسباب القضاء على ظاهرة التطرُّف في المجتمع.

ثانياً: نشر العلم الشرعي المبني على القرآن والسُّنَّة بين الناس والوقوف على كيفيَّة دراسة ثقافة الحوار، وفهم أطره وأسباب ضعفه، فضلاً عن ربط شباب المسلمين بعلمائهم الموثوقين، من خلال عقد اللقاءات المفتوحة معهم، وسهولة الوصول إليهم، مع وجوب الاهتمام ببنائهم على أسس عقديَّة إيمانيَّة صحيحة؛ تفتح عقولهم، وتبثُّ فيهم روح الدِّين الحقيقيِّ، وتمحور حياتهم حول هدف واحد، ألا وهو تحقيق العبوديَّة لله وحده. مع الاهتمام بالمناهج والتربية الدِّينيَّة الإسلاميَّة المعتدلة، ولتكن تلك المناهج واضحة المعالم، بعيدة عن الغموض، مع إعلان محاربة الفكر الفاسد للتطرُّف من خلال نشر فتاوى دينيَّةٍ عصريَّةٍ ملائمة توفق بين قواعد الإسلام الأصيلة، وبين متطلبات الحياة الضروريَّة، فضلاً عن مسايرة تطوّرات العصر، والله تعالى يقول: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت:33] وفيه إشارة – والله أعلم – إلى صفات الأستاذ أو المعلم المخلص وما ينبغي أن يكون عليه ويحق أن يقال في كثير من المتصدين لهذه المهمَّة في هذا العصر المتلاطمة أمواجه بالفساد والانحراف.

ثالثاً: فتح مغاليق أبواب الحوار مع كلِّ مُخالف، ودعوته إلى الحق بلطف ولين واحترام؛

ليتسنَّى له معرفة رسالة الإسلام العالميَّة الموجَّهة إلى الشعوب كافة، والتي تعترف بجميع الدِّيانات السَّماويَّة وتحترمها. وهذا ما يدعونا إلى كيفيَّة الاستفادة من فرصة الحوار وطرح الآراء مع الآخرين ولاسيَّما غير المسلمين بعيداً عن الإكراه والقسر، يقول ﷻ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة:256] «أي: لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنَّه بيِّنٌ واضحٌ جليٌّ دلائلُهُ وبراهينُهُ لا يحتاج إلى أن يُكره أحدٌ على الدخول فيه، بل مَنْ هداه الله للإسلام وشرحَ صدرَهُ ونوَّرَ بصيرتَهُ دخلَ فيه على بيِّنةٍ، ومَنْ أعمَى اللهُ قلبهُ وختمَ على سمعه وبصره فإنَّه لا يُفيدُهُ الدخولُ في الدِّين مُكرهًا مقسُورًا. وقد ذكرُوا أنَّ سببَ نزول هذه الآية في قومٍ من الأنصار، وإنْ كان حُكْمُها عامًا».[1]

رابعاً: تحديد منابع التطرُّف، والتضييق على أهله وعمَّاله ومروِّجيه، وعدم تمكينهم من نشر استبدادهم، وغلوِّهم ومذهبهم المخالف لشرعة السَّماحة والتيسير، ودعوتهم آنذاك إلى التحاور والإقناع، وتأصيل معاني الخير في نفوسهم؛ ليكونوا عنصراً بنَّاءً معتدلاً، ولا يتمُّ هذا إلا من خلال منظومة الإسلام العقديَّة والفكريَّة والأخلاقيَّة التي ترتكز إلى القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة، وهذا ما يحدُّ من انتشار التطرُّف بجميع أشكاله.

خامساً: ضرورة تطوير الآليَّات الرَّسميَّة بنشر ثقافة الحوار على أساسٍ من الانسجام، استجابة لمتطلبات التنمية السياسيَّة والتعدديَّة والتشجيع على الحوار الدِّيمقراطي الهادف، والموضوعي بين أبناء الوطن الواحد حول مختلف القضايا .. وهكذا يمكننا أن نحد من مساحات الأغلبيَّة الصَّامتة في مجتمعاتنا.

سادساً: عدم تأطير عمليَّة نشر ثقافة الحوار والاختلاف في أزمنةٍ معيَّنةٍ، أو أماكن محدَّدة، إذ لا يمُكن أن تكونَ هذه العمليَّة عمليَّة موسميَّة أو منحصرة في جانب معيِّن؛ وذلك لأنَّ هذه الثقافة يجب أن تسري كالرُّوح في جسد جميع أفراد المجتمع ومؤسَّساته وفي كلِّ مكان وزمان، فهي عمليَّة متكاملة مترابطة ودائمة مستمرَّة، وشاملة لمختلف نواحي الحياة وميادينها، ولن تتحقق هذه العمليَّة دفعة واحدة بل تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ حتى تؤتي ثمارها.

سابعاً: تعزيز قنوات الاتصال والتواصل بين المواطنين والمسؤولين وتطويرها، ممَّا يُساعد

(1) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: 1/ 682.

على تحسين الأداء الحكومي ورضا المواطنين فضلاً عن تقوية آصرة القرب والتحدث عن مشاكل المجتمع وهمومه، ممَّا يُسهم في تعميم الفائدة.

ثامناً: التأكيد على أهمِّيَّة تفعيل ثقافة الحوار بين الكادر التدريسي أنفسهم، وبينهم وبين طلاب الجامعات والمدارس التعليميَّة وذلك من خلال نشر ثقافة التسامح وتقبل الآخر التي تسعى المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة إلى تحقيقها، فضلاً عن ضرورة الاستفادة من التقنيَّة الحديثة في بناء مشروع ثقافة الحوار وتقويته.

تاسعاً: لمواجهة التطرُّف لا بد من الاهتمام بالتعليم، وتطويره بما يتناسب مع روح الاعتدال والوسطيَّة المنبثقة من القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة، مع نشر الوعي الإسلامي الحقيقي والمتسامح . وفي الوقت نفسه مراجعة برامج التعليم الحاليَّة؛ لأنَّها أحد أسباب ظهور جيل يستنكف استعمال العقل ومنطق التفكير السَّليم، ويحجم عن إعمالهما، ويستحقر الآخرين بل يستهين بهم، ويجهل تواصل تاريخه الإسلامي الصَّحيح، وتنوّعه وتعدد انتماءاته، الهادف للقضاء على مُشكلات التطرّف. لذا يجب تطوير المناهج وتركيزها – في المراحل المختلفة– على تدريس مواد متخصِّصةٍ في تقوية مفاهيم لغة الحوار وترسيخها لدى الطلاب، بما في ذلك تثبيت مفاهيم التحدث لديهم أمام الآخرين، فضلاً عن تأكيدها على موضوعيَّة ثقافة الحوار وتركيزها على كيفيَّة احتواء الآخر .. وهذه المناهج إذ بها حاجة ماسَّة إلى تطوير جديٍّ تشارك فيه جميعُ المؤسَّسات الوطنيَّة والشعبيَّة والرَّسمية لإنتاج روح ثقافيَّةٍ متطوِّرة، سويَّة غير مأزومة ممَّا سيُسهم بشكل كبير في تعميق ثقافة الحوار بين مكوِّنات المجتمع بدءاً من النَّاشئة.

عاشراً: إنَّ من واجبات وسائل الإعلام اليوم إيصال الفكر النَّيِّر للناشئة، مع تحريك وإثارة الحوارات الموضوعيَّة البنَّاءة حول القضايا المصيريَّة، إذ إنها معنيَّة بالإسهام في تربية الأجيال وربطهم بقضايا وطنهم وشعبهم وأمَّتهم. كما أنَّ جميع القوى الاجتماعيَّة معنيَّة بالتواصل والتحاور مع الثقافات العربيَّة والعالميَّة والاستفادة من كلِّ ما أنتجه التقدُّم العلمي، إذ ليس من المعقول أنَّ كلَّ ما يصل إلينا من خارج الحدود الوطنيَّة مشكوك بأهدافه.

أهمُّ النَّتائج

وممَّا سبق يتضح لنا جليّاً أهمِّيَّة هذا الموضوع الشيِّق.. وبعد تلكم الجولة المتواضعة أخلص إلى ما يأتي:

1) إنَّ موضوع الحوار يتناول شؤون الحياة دون انعزاليّةٍ أو فصل، يقوم منهجه على نظام فريد أساسه القرآن الكريم، قوي في البناء يُقرِّر الصُّور المثلى والمنهج العادل والوسطيَّة تجاه التفاعل الإنساني، والتسامح من أجل التعايش السِّلمي.

2) تأكيد القرآن الكريم على نشر أخلاق الحوار، وحقِّ الاختلاف، وذلك من خلال الممارسة الفعليَّة وليس على مستوى الكلمات أو الشعارات فحسب، بدءاً من البيت والمدرسة والجامعة والعمل والمسجد وصولاً إلى المؤسَّسات الرَّسميَّة. وتقبُّل الاختلاف بين الأجيال المتعاقبة، بصفته سُنَّة الحياة، ولن يكون هذا إلا بإشاعة الممارسة الدّيمقراطيَّة المشروعة في كلِّ مستوياتها ومجالاتها والقضاء على كلِّ أشكال التطرّف والتعصب.

3) إنَّ المنطقَ يفرضُ علينا أن نتجاوزَ عجزَ الحوار فيما بيننا، ونعمل جاهدينَ من أجل تنمية ونشر ثقافة الاعتراف بالغير، وثقافة الكشف عن مواطن ضعف الحوار ومعالجتها، وثقافة الاستفادة من نقد النَّاقدين الجديِّين، ولو كانوا من معارضينا أو ممَّن نعدُّهم من أعدائنا.

4) إنَّ من أبرز أسباب التطرُّف، والإرهاب في العالم المعاصر إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى، والاستبداد فيما بيننا كثير؛ وانتشار ثقافة إهانة العلم، والاعتداء على قداسته وحرمته؛ ممَّا أنتج ثقافة ليِّ عنق النُّصوص الشرعية لتستجيب لقوتي التفجير، والتكفير بدل التفكير؛ فضلاً عن الاستكبار العالمي.

5) أوضحت هذه الدِّراسة أنَّ التعدديَّة الثقافيَّة والفكريَّة على ما فيها من تنوّعٍ واختلافٍ، إنما هي مكسب كبير للبشريَّة ، يجب أن يستثمر في تقدِّمها وتطوِّرها وثرائها، في

عدم استجابةٍ للأفكار الضالة والمنحرفة، فضلاً عن تطرُّف الفكر، ممَّا يوجب نشر ثقافة التفكير السَّليم، وتوطينها في عقول الشباب في رحاب سياسة عادلة تحترم آدمية الإنسان، وكرامته.

6) بيّنتْ هذه الجولة وبشكل واضح وصريح رفض الدِّين الإسلامي ومواجهته للتطرُّف بجميع أشكاله وألوانه، وحثّه للمسلمين على الابتعاد عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التطرّف والغلوِّ، واستخدام القوَّة بغير محله. ولمَّا كان التطرّف بمجاوزته الاعتدال ومخالفته أصل الشرعة المبنيَّة على الرِّفق والتيسير والسَّماحة، فهو ليس من الإسلام وحضارته بل الإسلام منه براء.

7) إنَّ ما يبرز من حالة تشدد في الدِّين لابدَّ وأن يكون مرجعه الشرع نفسه المبنيّ على القرآن والسُّنَّة، لا على اصطلاح الناس ومفاهيمهم وأهوائهم وإطلاقاتهم.

8) يُؤكد هذا البحث على ضرورة استمرار العمل؛ لتحقيق أهداف الحوار البنَّاء بين الأديان والثقافات والحضارات وتكثيف الجهود من أجل إشاعة قيم المحبة والحوار والتفاهم بعيداً عن كلِّ مظاهر الغلوِّ والتطرّف والإرهاب.

9) إنَّ الواقع التاريخي والسِّياسي يُؤكد في جلاءٍ وصدق ووضوح أنّ القرآن الكريم هو الدَّاعي والمؤسِّس الأوَّل لقواعد وأسس التفاعل والسِّلم بين الأمم وقد بيَّنها وأوضحها وطبَّقها على أرض الواقع، رسول البشريَّة مُحمَّد ﷺ في تعاملٍ إنسانيٍّ وحوار هادف منشود في الغايات والوسائل والأهداف.

10) إنَّ الاعتراف بالغير ومحاورته هو تعبير عن أبرز قيم الحِضارة والنَّهضة في القرآن الكريم، وسمات الشخصيَّة الإسلاميَّة المتوازنة، وهو ضرورة حتميّة وواجب أخلاقي، وشرط مؤكد للقضاء على أصناف التطرّف والغلوّ، ممَّا يهدف إلى أمن واستقرار جميع المجتمعات والثقافات.

11) أوضحت هذه الجولة ضرورة إيجاد روح التسامح بين المجتمعات كافة، واستذكار أوجه التقارب بينها للعيش بسلام وأمن واستقرار وأنَّ رسالة الإسلام عالميَّة موجَّهة لجميع الشعوب، وهي تعترف بجميع الدِّيانات السَّماويَّة وتحترمها وتعترف بالأنبياء والرُّسل كافة،

والحضارة الإسلاميَّة جزء من الحضارة الإنسانيَّة، تقوم على الوسطيَّة والاعتدال وتقارب الثقافات، والإيمان بالقيم المشتركة الثابتة، والتعاون والتفاهم المتبادل بين الحضارات، والتحاور البنَّاء مع الدِّيانات والثقافات.

12) أكدت هذه الدِّراسة لأبناء الحضارات كافة بأنَّ عليهم أن يتجاوزوا الوقوف أمام العوامل السِّلبيَّة في تاريخ العَلاقات بين الإسلام والغرب وتجاهل ما بين الحضارتين من نقاط التقاء عديدة، وقواسم مشتركة.. وإن كان الجميع يعترف – في هذا الصَّدد– بأنه لا تزال توجد غربة فكريَّة للمسلمين عن الحضارة الغربيَّة، وغربة فكريَّة أعمق للغربيِّين عن الإسلام، لكن هذه العوائق يُمكن أن تتبدد كلما كثرت اللقاءات الحضاريَّة والثقافيّة بين الجانبين.

13) إنَّ إحياء ثقافة الحوار، وتعزيز آليَّات التواصل، واحترام الآخرين، ومراعاة خصوصيَّاتهم، لهو الحلُّ البديل والأمثل والأنسب في وقاية الأفراد والشعوب من التقاطع والصِّدامات، التي لا ينتج عنهما إلا الويل والدَّمار لكافة الأديان والثقافات على حدٍّ سواء.

14) بيَّنت هذه الدِّراسة دور حريَّة الفكر والتعبير في تأسيس العَلاقات الثنائيَّة والجماعيَّة والدُّوليَّة الإنسانيَّة وتمتينها وفتح مغاليق التعاون والتفاهم وتبادل النفع ورعاية الحُرُمات؛ من أجل سلامة البشريَّة، وأمن الوجود الإنساني وانفتاحه، ممَّا يعود نفعه للشعوب والدُّول والحكومات.

15) إنَّ الإعلاميِّن اليوم في الشرق والغرب أمام مسؤوليَّةٍ عظيمةٍ تتطلب منهم النظر في ثوابت الرّوح الإنسانيَّة، وسنن الكون ومُعطيات الواقع وحقائقه؛ لتقديم رسالة إعلاميَّة فاعلة تعمل على فهم الآخرين واحتوائهم والرّجوع بالشعوب إلى الحركة التفاعليَّة البعيدة عن الإقصاء والتهميش والأنانيَّة، ووفق الأسلوب الصَّحيح الحق.

.. وأخيراً فإنَّ هذا البحث يؤكد على إشاعة قيم التسامح والمرونة والانفتاح بين الناس عموماً، والأجيال الشابة خصوصاً للتخلص من ثقافة الأحاديَّة واللون الواحد، وثقافة الغلبة والعنف والقهر، ومُصادرة الحريَّات.

وصلى الله وسلم على نبيِّنا مُحَمَّد وعلى آلِهِ وصحبِهِ .. و﴿الحمدُ للهِ ربِّ العَالمِيْنَ﴾.